التجديد

نحو منهاج إصلاحي جديد ..

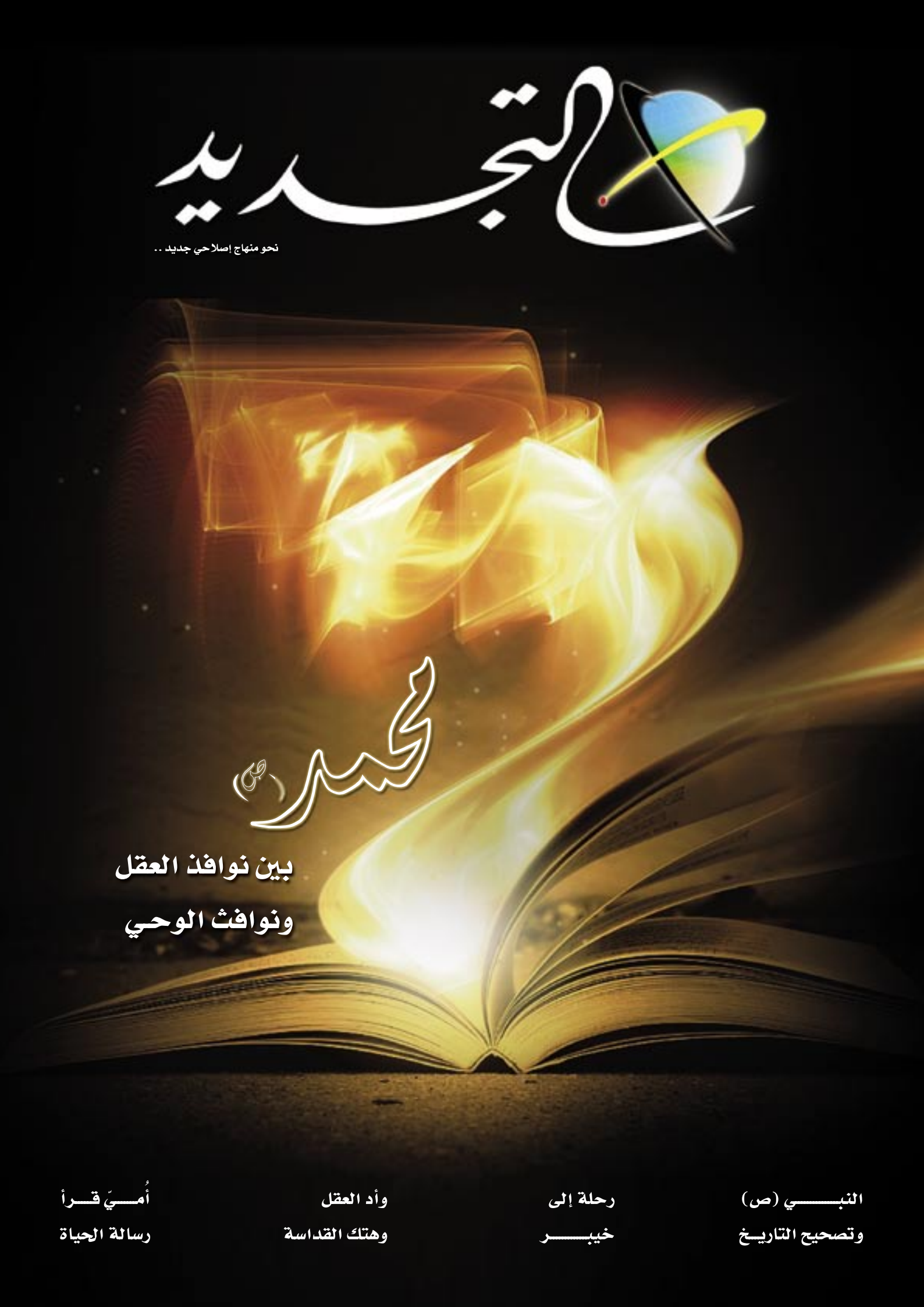

محمد (ص)

بين نوافذ العقل ونوافث الوحي

النبـــــي (ص) وتصحيح التاريـخ

رحلة إلى خيبـــــر

وأد العقل وهتك القداسة

أُمـــيّ قـــرأ رسالة الحياة

محتوى التجديد

البشير الذي
صيّروه نذيراً
٨٢

وأد العقل
وهتك القداسة
٢٤

صلح الحديبية درس في
تحديد الغاية الأهم
٦٤

حرية العقيدة
والفتوح الإسلاميّة
٥٢

ارجعوا وراءكم
فالتمسوا نوراً
١٨

محمد بين نوافذ العقل
ونوافث الوحي
٤٤

يتيماً فآوى، ضالاً فهدى،
عائلاً فأغنى
٢

خديجة بارقتنا
في مدارج الكمال
٨٨

رحلة إلى خيبر
٧٠

النبي (ص)
وتصحيح التاريخ
٣٦

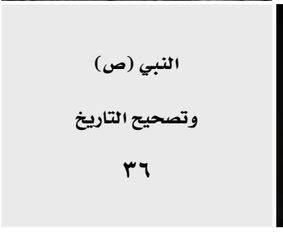
أُمّيٌ قرأ
رسالة الحياة
١٠

رئيس التحرير
حسن الشارقي

مدير التحرير
أحمد شوقي

أسرة التحرير
أحمد عباس
كريمة عبد الكريم
رابحة الزيرة

التصميم الفني
أواب الشارقي
زينب الهاشمي

مجلة التجديد تصدر عن جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية
العدد الرابع (ديسمبر ٢٠٠٧) ـ رقم التصريح 414 stte

ص . ب : ١٠٤٩٣
هاتف : ٠٠٩٧٣ ١٧٢٧٢٧٨٧
فاكس : ٠٠٩٧٣ ١٧٢٧٤٧٨٧

الموقع : www.tajdeed.org
الإيميل : tajdeed@tajdeed.org
المنامة – مملكة البحرين

نتقبل النقد الحق من كل أحد، ونرده عليه بالثناء والشكر. ونذعن للحق كيفما طلع بدره، ومن أين انبلج فجره، ونتقبل الحكمة أينما وجدت.

كلمة العدد

حياة محمّد (ص) .. وأدواء أمة

بقلم: م. حسن الشارقي

أكثر ما يؤلم اليوم هو أن يتيه المسلمون في اختلافات فكرية وعقائدية وعاطفية وبين يديهم هدي سيرة أفضل خلق الله .. محمّد (ص).

فبالرغم من أن كتب السيرة ومجامع الحديث تملأ المكتبة الإسلامية، وبالرغم من كثرة من كتب وحلّل في السيرة النبوية الشريفة، إلا أن تناول السيرة ظلّ سطحيا بعيدا عن واقعنا، وفي أحسن الأحوال بابًا للوعظ وللتربية الفردية، أمّا أغلبها فحكايات تتلى على الأطفال والشبان في المدارس أو المساجد، عن بطولات الصحابة والفتوح، عن سجالات الرسول والمشركين، عن الهجرة والغزوات وغيرها.

لسنا هنا للتقليل من شأن تناول السيرة بهذا النمط، فهي بلا شك أهمّ أسباب ارتباط المسلمين بنبيّهم الخاتم عاطفيا بالدرجة الأولى، إلا أننا نحاول أن نشير في هذا العدد الخاصّ إلى زوايا مختلفة هامة في شخصية وسيرة خير خلق الله.

إنّ إشكالات فكرية واجتماعية مزمنة في الأمّة كالتشدّد الديني، والطائفيّة، واختلال مفهوم الجهاد، ومعنى الشورى وتطبيقها، وأسس وحدود الدعوة، والتميّز بين الكافر والمشرك، وحكم المرتدّ ومفهوم حريّة العقيدة، وحقوق المرأة وحدود حراكها في المجتمع والسياسة، ومفهوم الدولة وعلاقتها بالدين، والمقصد العام من الحكم الشرعي، وغيرها من المفاهيم، ما كان لكل تلك الإشكالات أن تستفحل في الفكر الإسلامي فتصبح أدواء مستعصية تشقّ صفوف المسلمين لو أننا نظرنا إلى السيرة النبوية بمنظار مختلف، نتجاوز به الاستلاب السياسي والتوظيفي والتحريفيّ لمفاهيمنا الدينية والروحيّة والأخلاقيّة.

اليوم كثير من الأحكام الشرعية المختلف عليها بين المسلمين إنّما كانت لغرض ما في حراك المسلمين اليومي وصراعهم في الجهادين الأكبر والأصغر، وكان لها مقصد خاصّ وظرف خاص، وكان (ص) يعمل بالمرونة ما يراه مناسبا في حركته التغييرية الشاملة وأولويّات التحرّك في بناء شخصيّة الإنسان السويّ الحرّ أوّلاً، ثمّ صياغة الأمّة الوسط من جماعة الدعاة إلى الله، ثمّ أخيراً -بما توفّر له- من بناء الدولة والمجتمع.

إلا أنّ ما يؤسف أن يقوم المسلمون بعد ذلك بالتخبّط في أتون تفاصيل هذا الإرث العظيم فيتشبثون بقشور السيرة أو بجوانب منها مجتزأة وقوالب مجمّدة، وتغيب عنهم المقاصد الكبرى من وراءها.

إنّ الحياة المجتمعية في باكورة الدولة الإسلامية لم تكن من البساطة بحيث تكون التوجيهات النبوية الشريفة فيها سوداء أو بيضاء، وإنما كانت من التعقيد والتداخل ما يحتّم على النبيّ (ص) أن يتعامل معها بمرونة تامّة آخذا في الاعتبار أولويّات عدّة، لقد كان (ص) يجسّد في كلّ أفعاله مبادئ المحبّة، والسماحة، والتيسير، وحسن المعشر، والحنكة، وبعد النظر، وكان هذا السلوك الشريف هو ما يعكس سماحة الإسلام ومرونته وتجدّده وتناسبه مع الأزمان والأمكنة، ولو تأمّل القارئ في بعض أخلاق السيرة لتبيّن له ذلك .. ولقد وصفه ربيبُه عليّ (ع) أفضل وصف وأتمّه (طبيبٌ دوّار بطبّه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه، يصنع ذلك حيث الحاجة إليه في قلوب عُميٍ وآذانٍ صمّ وألسنةٍ بُكم)، ما أحوجنا اليوم لاستدعاء هذا الطبيب الحاذق (ص)، والانتفاع بمراهم سيرته العجيبة حيث مواجعنا وأدوائنا وتخلّفنا وتمزّقنا! وإننا في سبيل ذلك نقدم للقارئ الكريم هذا العدد الخاص المتزامن مع إطلاق "مشروع الوحدة الإسلامية وديعة محمد (ص)" على أمل أن يضيف بعضا من عرى التوحد عبر الرجوع لسيرة هذا الإنسان العظيم الذي جمع بجميل خصاله وعظيم خلقه أناسي الشرق والغرب على مختلف ثقافاتهم ولغاتهم تحت راية واحدة هي الإسلام.

يتيماً فآوى، ضالاً فهدى، عائلاً فأغنى

بقلم: الشيخ أحمد العريبي

يذكر التاريخ أنّ محمداً بن عبد الله (ص) صيغت حياته بأحداث تهدّ الرجال العظام، فكيف وهو حدث السن، وكلّما ألّمت به الخطوب تصلّب عوده ونمت شخصيته، وتعالى على جراحها وضغوطها، ولولا إرادته الفولاذية ورحمة الله به لحدثت فيه شروخ وعقد نفسية يسقط فيها عمالقةُ الرجال، فكان مثالاً لتحدّي الأزمات وصياغة المواقف وصناعة القرارات، وتحويل المستحيلات إلى عالم الممكن مذ كان صبيًا وقبل أن يُبعث نبيًا، طفولته وصباه إضاءات ومواقف مهمة ومصيرية لها أبعادها الكبيرة على نمو شخصيته وفق معايير الإباء والكرم والفضيلة، واستلهام الأبعاد المعرفية للكون وخالق الكون، والمجتمع وأدوائه، ورقي الروح وكمالها، وكلّ ما يهم بناء الإنسان السوي، فلا يكاد أحد يجد فارقا في فضائل إنسانية محمد (ص) قبل البعثة وما بعدها.

شاء القضاء الرباني أن يقاسي محمّدٌ (ص) مرارة اليُتم وآلامه ليشعر بالأيتام بوجدانه ويبحث عن أمل المحرومين، فيخلص تعلّقه بالرحمن، وتوكّله على الحيّ الذي لا يموت.

شاء القضاء الرباني أن يقاسي محمّدٌ (ص) مرارة اليُتم وآلامه ليشعر بالأيتام بوجدانه ويبحث عن أمل المحرومين، فيخلص تعلّقه بالرحمن، وتوكّله على الحيّ الذي لا يموت، فقد تزوّج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب، وبعد ثلاثة أشهر من زواجه خرج إلى الشام للتجارة غير عالمٍ بأنّ زوجته حبلى، وفي طريق عودته عرّج على أخواله بني النجّار، في يثرب، وهناك اشتدّ به المرض، فوافاه الأجل وله من العمر خمس وعشرون سنة، ترمّلت آمنة بنت وهب وتقطّع نياط قلبها لفقد زوجها الحبيب، ويشتدّ ألمها كلّما تذكّرت بأنّ السماء قررت ثكل وليدها الغافي داخل أحشائها، وأفقدته رعاية الأبوة، وقد تعوّدت نساء قريش استئجار مرضعات ومربيّات من البادية لأولادهن، ونساء قبيلة بني سعد كنّ مرضعات أبناء مكة، وهنّ في العادة لا يرضعن إلا أبناء الأغنياء أملاً في الأجر والمكافئة الوفيرين، وهاهنّ المرضعات وفدن من البادية، لينتقين بيوت الثراء والمال، فتتباهى الأمهات بما لديهن من خير وفير إن أُحيط الولد المرتضع بحسن العناية، وتبادلهن المرضعات بما تنوين صنعه للوليد، وما يوضح شرفهن وأنسابهنّ، حتى إذا اطمأن الطرفان تعاقدا على الرضاعة.

أما بيت آمنة فقد زهدن فيه، ولم تطرق دارها واحدةٌ منهنّ، فعبد المطلب جدّ محمد ليس من ورائه مطمع، فإن جوده وبذله قد أفنى ماله، وكبر سنُّه، وشارف التسعين عمرُه، ومن أين لأمّ محمّد منافسة بيوتات مكة وأثريائها؟! وحين أزمعت القافلة مغادرة مكة تنهّدت آمنة وتمتمت: "لا أحد يطرق بابنا، ولا مطمع في الأيتام الفقراء"، دمعت عينا آمنة، لولا استذكارها هاتفاً قديماً طرق أذنيّها دون أن ترى شخص هاتفه: "إنّك قد حملت بسيّد هذه الأمّة ونبيّها"، وبينما السيّدة آمنة والجاريتان ثويبة وأم أيمن بين اليأس والأمل، خرجت الجاريتان من البيت يحثّهما بقايا أمل، لاح لهما صورة امرأة تخلّفت، وعيناها توحيان بالطيبة والحب، وصوتها يتناغم بالرحمة.

– هل لك يا أختاه رغبة في وليدٍ ترضعينه؟

– نعم، وأين دار أهله؟

– في هذا الزقاق القريب.

– وإلى من ينتسب الوليد؟

– هاشميّ، أبوه عبد الله بن عبد المطلب فتى مكة، مات أبوه، وهو الآن في كفالة جدّه سيّد قريش وحامي ذمار مكّة، وأمّه آمنة بنت وهب.

– إذن هو اليتيم الذي سمعت عنه، لم يورّثه أبوه مالا، وجدُّه شاخ سنّه، ونزف جيبُه، فعفوًا ومعذرة، فأنا وزوجي قد رمّضنا الفقر، ولا نكاد نُطعم أولادنا إلا سُغُبا.

عادت أم أيمن لتقول: فقط تعالي وانظري للولد، فلعلّ يمُن طالعه وصباحة وجهه يغنيك عن كنوز الأرض.

تمنّعت المرضعة، وألحّت الجاريتان، وأخذت المرضعة كأنّها تمشي بين أشواك، تتنازعها خيالات تقطع عليها مشيها، والجاريتان تستحثّانها بأملٍ يقرّ العين، أهلّت على البيت وخطف بصرَها الوليدُ النائم، فاحتضنتْه وضمّته إلى صدرها، فأحسّت بتدفق اللّبن في ثدييها، وأقبل على التقامه فأحسّت بنشوة لم تعهدها من قبل. أجلستها آمنة بجوارها، ورحّبت بها، وسعت الجاريتان في تقديم ما وجداه في البيت من كرم الضيافة.

– سألتها آمنة: وما اسمك يا أختاه؟

– اسمي حليمة وزوجي الحارث بن العزّى.

– أنعم وأكرم بالسيّدة المصونة، وأنعم وأكرم بأهلك الكرام. وأهلا وسهلا بك بيننا.

وسرعان ما أدركت حليمة سحر بيان السيدة آمنة وقوّة شخصيتها، وتطلّعت إلى أثاث البيت وتواضعه دون بيوت الأثرياء، فألحّ عليها حالها، وقالت: "جئت أملا في النعمة والرزق، فما لنا غير قطعة من أرض طالما أجدبت وعزّت علينا خيرها، وناقة عجفاء خاوية الضرع، وشاة بالكاد يندّ منها اللبن"، صمتت جميعُهن، ثم قطعت آمنه صمتها حين تذكرت الصوت الذي أثلج قلبها والجنين في أحشائها: "إنّك قد حملت بسيّد هذه الأمّة ونبيّها"، فرفعت يديها بالدعاء: "عسى أن يرزقكم الله خيرا وفيرا ببركة هذا المولود اليتيم".

خرجت حليمة السعدية متثاقلة برضيعها محمد، وصلت لزوجها أبي ذؤيب إلى حيث إقامتهما في مكة، انفجرت بالبكاء أمام زوجها، وهو في حيرة من أمرها، فإنه لم يرها في مثل هذه المواقف باكية، خاطبت زوجها: إذا كنت تنكر عليّ بكائي، فأنا لا أدري له سببا، ومذ بصرت بالرضيع حنّ قلبي إليه، وأشعر الآن بضميري يؤنبني، فقد كنت قاسية في ردّي مع أهله، وبين إحساس بعمق الحنين إليه، وبين فقرنا الذي لا أعرف له دواء ينفعه، صرت على هذا الحال.

تهيّأت حليمة وزوجها عائدين إلى مضاربهما قبيل الضحى، ومركوبهما أتانٌ هزيلة، وناقة عجفاء لا تقويان على حمل نفسيهما، عبر الجبال الوعرة، جدّا بهما السير حتى لحقا بالقافلة التي سبقتهما منذ الفجر، أحسّت حليمة أنّ بركة اليتيم أحاطت بالرَّحل، وصلوا مضاربهما سالمين، وسرعان ما أدركت حليمة وأهلها اليسر بعد العسر، والبركة والبسط بعد القبض والجفاف، وتوجّه زوجها مخاطبا إياها: " والله ما أراكِ يا حليمة إلّا أخذت نسمةً مباركة". وخلال وجود محمد في مضارب بني سعد يتناهى لآمنة بين الفينة والأخرى بركة وليدها محمد، لكنها كم تمنّت لو أنّ أباه عبد الله قرّت عينُه باحتضان ولده، والقيام بأمره، إنّ أمنيتها تلحّ عليها أن تعوّضه بحنان أخواله، فأخذت وليدها محمّدًا ومعها جاريتها الحبشية

أمّا محمّد وإن كان يومها طفلا، إلا أنه ارتضع حبًّا ممزوجا بأسى على أبيه، لما تعشّق من فضائله ومراحمه، ودّعت آمنة قبر زوجها وما كاد محمّد تطاوعه أقدامه للتنحّي عن القبر، لولا إشفاق أمه لأبقته يتملّى طويلا.

وفي طريق العودة أحسّت آمنة باعتلال صحتها وانهداد ركنها، وأبى وفاؤها إلا اللحاق بزوجها، ماتت آمنة في الغربة على بُعد أربعة أميال من

من ذا الذي ينقض سندي ويقطعني؟! كافلاً بعد كافل وحبيبا بعد حبيب؟! حتى خلت أنه لا يبقى لي حبيب ولا سند ولا كفيل إلا ويقطعه الموت عني.

يثرب، ولم يكن من أحد في تجهيزها ودفنها إلا أم أيمن، وطفلها محمد، بين عينيه مددتها أمُّ أيمن، وأغمضت عينيها، ودفنتها في الأبواء، ومحمّد توًّا قد ودّع قبر أبيه، وها هو يهيل التراب رغمًا عنه على أمّه، لقد سقى ترابها بدموع عينه التي لم تفارق النظر للقبر الذي اختطف أمّه وألحدها للأبد، رجعت أم أيمن مهيضة الجناح حائرةً تسأل قلبها: ماذا أفعل بيتيم الأبوين؟ سلّمته إلى جدّه عبد المطلب الذي شارف التسعين من عمره، فاطمأنت نفس محمّد بما أسبغ عليه جدّه من عطفه وحنانه، واحتضنته زوجة جدّه هالة ابنة عمّ أمّه آمنة، لكن القدر أبى إلا أن ينتقض سند محمد وكافله ومربيه الأكبر، وفي ليلة حالكة باتت مكّة تبكي شيخها وتليد مجدها، رجالُها ونساؤها يندبون حصنهم المنيع، وظلَّهم الوارف، وقد تضمّن رثاؤهم محامده وسجاياه التي خلّدت ذكره وأثره، ومنها هذه الأبيات:

أعينيَّ جودا بدمع درر
على طيب الخيم والمحتضر
على ماجد الجدّ واري الزناد
جميل المحيا عظيم الخطر
على شيبة الحمد ذي المكرمات
وذي المجد والعز والمفتخر
وذي الحلم والفضل في النائبات
كثير المكارم جمّ الفخر
له فضل مجد على قومه
منير يلوح كضوء القمر

افتجع محمد ابن الثماني سنين بموت جدّه شيخ مكة، سمع النادبات يعددن شمائله، انتحى ناحية لوحده فراودته الذكريات، ونهشتْه الأحزان، يتذكر أفضال جدّه ويعدّدها: رحل عني الذي علّمني مجد أسلافي، رحل عني الذي غذاني دروس الحبّ، والشهامة والإيثار، رحل عني الذي علّمني منطق الكبار.

كان يأخذني جدّي معه إلى البيت الحرام، اعتاد أن يجلس كلّ يوم في ظل الكعبة، يفرش عباءته ويجلس عليها، ثم تأتي سادة قريش وتجلس أمامه، يتناقشون في أخبار السياسة والاقتصاد، وأخبار مكة عموما، كنت أصحبه وأجلس إلى جواره على عباءته، التي لا يسمح بجلوس أحد عليها، كان يظنّ أنّي سأقضي الوقت في اللعب، لكني اجلس منصتا لأحاديث الكبار، وأتابع ما يتحاورون فيه، وأفقه ما يقولونه، عرفت طرق تفكيرهم، والمواضيع التي تأخذ ألبابهم، ونفوسهم متى تعزّ ومتى تسخو؟ ويستغرب جدّي من مكثي مع حديث الرجال، لم أكن أُضيّع هذه المجالس، ولا أرغب في اللعب مع الأتراب، نظر جدّي مرة لزعماء قريش وقال لهم: "إن ابني هذا سيكون له شأن عظيم". فكانت كلمات جدّي الدافع والحافز الذي لم يفتر عندي، فقد رأيت حياة الجدّ هي حياة العظام، وهي طريقي نحو طاعة جدّي وحفظ وصيته.

ما توفي الجدّ إلا وعينُه على ابنه اليتيم يحوطه بالوصايا، فقد تجمع أبناء عبد المطلب وأوصاهم بوصايا العزّ:

- "يا أولادي لقد جاءني الموت، وإني مودّع الدنيا، وإنّي موصيكم خيرًا بأنفسكم، فإنّ عزّ قريش بكم، ومجد الكعبة مجدكم، فإن اتّحدتم على الخير، بقي عزّكم ودام مجدكم، وإن تفرقتم ذهبت ريحكم، وطمع فيكم من أهلكم من هو أسرع في الوثوب عليكم من الغرباء والبعداء،

- لقد أثل لكم الجدودُ أمجادا فزيدوها، ولا تنقصوها، ولقد أدّى هاشم رسالته، وأكملتُ لقريش واجبي، وعليكم ما بقي ..

- وأنت يا أبا طالب، لك الزعامة بعدي، ووصيّتك من مجد قريش .. محمّد .. إنه ابني وأحبّ الناس إلى قلبي، وقلبي يحدّثني أنّه في غدٍ فخر قريش وزعيمها، وإنّ الخير سوف يجري من كفّه سيّالا على قريش وأمّة العرب، فضمّه إليك، ووطّئ له دارك كنفا، وصُنه، واحفظه وأعزّه".

لكن النكبات لا تأبه بالوصايا، والقدر المخبّأ قد يعاكس توقّعات البشر ويخالف آمالهم، كان محمّد ينظر ويتأمل للسند تلو السند ينتقض ويتساءل: من ذا الذي ينقض سندي ويقطعني!؟ كافلاً بعد كافل وحبيبا بعد حبيب؟! حتى خلت أنه لا يبقى لي حبيب ولا سند ولا كفيل إلا ويقطعه الموت عني، والناس في مكة يحسبون أنني أفجع في أحبتي بفعل مسّ الأصنام، لكنني ما اعتقدت ولا لحظة أنّ للأصنام سببا في فجيعة أحد وموت أحبابهم، فليست هي بأهل للضر والنفع، كلّما ضاق صدري، وفتك الموت بسندي وعوني تهيّأ السبيل لآخر، وهذا الآخر يظلّ يسترخص كلّ عزيز من أجلي، فمن بيده الضرّ والنفع؟ والفرج بعد الكرب؟ والرخاء بعد الشدة؟! إنّي طالما ناجيته، وهفوت إليه، وتعلّقت به، فأشعر بنشوة غريبة يصاحبها انشراح عميق وسرور غريب، فمن أين يأتيني كلّ هذا الإحساس!؟ خلوت بنفسي مرّات ومرّات، أتأمّل في هذا الإحساس الغريب، وهذا الشعور الذي يتملّكني بفراغ عقلي، والرغبة العارمة في ملئه، أهو عبث؟ أم استدراج إلى آفاق الكمال!؟ ومتى يتحقّق ذلك؟ وأخيرًا بعد عشرات السنين، وصراع طويل مع النكبات، يطمئنّ قلبي إلى هاتف الحقّ يقرّر تساؤلاتي: "ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك، فإنّ مع العسر يسرا، إنّ مع العسر يسرا، فإذا فرغت فانصب، وإلى ربّك فارغب".

كان أبو طالب أجدر بوصية أبيه وأولى الأعمام باحتضان محمّد، ولو لم يكن لهذا البيت وصية لما عدا اختيار محمّد بيت عمّه أبي طالب، فرشت فاطمة بنت أسد ذراعيها لقلب محمد، هي توصي أبناءها دوما بإيثار محمد على أنفسهم، وزوجها عمّ محمّد كذلك، ونِعْمَ ما فعل أبناء أبي طالب بمحمد، إلا أنّ البيت ينوءُ

بعشرة أبناء، لكن محمّدا الصبيّ صاحب إرادة ومبادرة، وبالرغم من أن عمره وقتئذ لم يتجاوز الثامنة من العمر، إلّا أنه قرّر أن يشارك عمه في إعالة الأسرة وتحمّل المسئولية، اتّخذ قراراً بذاته دون حثّ ولا إرشادِ أحد، واختار أن يرعى غنمًا لبعض أهل مكة، يرتزق من كدّ يمينه وعرق جبينه، اتّخذ هذا القرار وهو غضّ ليتربّى على العزّة والكرامة وعون الآخرين، عرض على عمّه إرادته وقراره للعمل، فحاوره في قراره متسائلا:

- أليس من العار عليّ أن أدعك تعمل الآن يا محمّد؟ يا بنيّ سيقول القريب والبعيد من أهل مكة: أنّ أبا طالب ضمّ ابن أخيه ليكون له عبدا ينتفع به، وهو عار على بيتنا الهاشميّ، وأنت أعزّ أولادي، وقلبي لا يطاوعني إلا أن أؤثرك عليهم، وأنت أمانة والدي وشقيقيّ عبد الله، فما تقول يا بنيّ؟

- يا عمّاه، الناس لا يعرفون نيّتي وغايتي، فحين أعمل أقطع الفراغ ألّا يتسلّل إلى قلبي، وأكتسب التجارب، أريد فرصة للتأمّل، وعندي أسئلة تحيّرني، وعقلي يأمرني بأن أكون عوْنًا لعمّي.

- وما هو العمل الذي اخترته يا بني؟

- رعي الغنم، تحدثت مع بعض فتية مكة عن رغبتي، وجاءني عمّي صفوان وزوجه عمتي فارعة بنت وائل يعرضان عليّ رعي أغنامهما مقابل ثلث نتاجها، وأنا أنتظر إذنك يا عمّ.

- ما دامت هذه نواياك فقد أذنت لك يا محمّد وأتمنّى الخير لك.

نشر صفوان خبر محمّد، وأقبل مخزوم بن الحارث يرجو من محمّد أن يرعى غنمه أيضا، وجاء سعد بن المسيّب وداوود بن حبيب يلتمسان منه أن يرعى غنمهما.

سار مع محمد بعض الفتية للعمل معه، وانطلق الفتية في الرعي، لكنهم كانوا ينشغلون بالغناء واللعب وقليلا من الرعاية بالغنم، أمّا محمّد فلم يطبق له جفن حتى يطمئن على القطيع، وهو يسعى في حراستها عن عواديها، وإن ولدت نعجة أحاطها ووليدها بكثير من الرعاية، والباقي من وقته جعله للتأمّل، كثر النعاج، وتضاعف الإنتاج، وكبر الضرع ودر اللبن. لقد أدرك أصحاب الأغنام أن الرعاة السابقين يغفلون عنها، وربّما تتخلّف الواحدة والثنتان طعمة للذئاب، ويذبحون ويشوون ويدّعون بما قال أخوة يوسف: إنما أكله الذئب. في يوم من الأيام أخبر أحد الرعاة محمدا أنّ راعيا واسمه عجلان بن نوفل ومعه آخرون قد ذبحوا "طليا" وشووه وأكلوه، فأحضرهم محمد وأنكروا فعلتهم، وشهد رفاقهم عليهم، فما كان من محمد إلا أن أرسلهم إلى مكة، وضمن إلى صفوان صاحب الطلية المسروقة ثمنها من أجر عمله، ووقتها ذاع صيت محمّد "الصادق الأمين". اختار قرار رعي الأغنام لأنّه الأصلح لوضعه وظروفه، لكنه ما كان للارتزاق فقط، بل أنتج من خياره أبعادا لا يلتفت إليها إلا الواعون المخلصون الذين يوظّفون كلّ شيء من أجل أبعاده المعرفية، فقد حقّق أولا الاكتفاء المالي، واقترب

يا أبا طالب، لك الزعامة بعدي، ووصيّتك من مجد قريش .. محمّد .. إنه ابني وأحبّ الناس إلى قلبي، وقلبي يحدّثني أنّه في غدٍ فخر قريش وزعيمها، وإنّ الخير سوف يجري من كفّه سيّالا على قريش وأمّة العرب، فضمّه إليك، ووطّئ له دارك كنفاً، وصُنه، واحفظه وأعزّه".

عبد المطلب جد الرسول (ص)

من غنمه وسمّى كلّ واحدة منها اسما خاصّا بها، لتألف به ويألف بها، تعرّف بفعل الأيّام والسنين على خصائصها الحيوانية، كيف تتهارش؟ وما أسبابها؟ ما طمعها؟ وما قناعتها؟ ما عدوانيتها؟ وما رضاها؟ ووقف وتأمّل عند تضاريس البلد ومرعى غنمه، وخرج بالأساس بحصيلة علم النفس الحيواني – إن صحّ التعبير- وانطبعت هذه الأبعاد في وعي محمد (ص) منذ صغر سنّه وطبيعة تفاعله معها، ولأن في النفس الإنسانية نزوعاً نحو الهمجية والحيوانية إن انحدرت كلّ نفس عن فطرتها، وأبت الانصياع للنفخة الربانية في إنسانها، فقد كبُر القرار ووظّفه فيما بعد لخير الإنسان وكماله، وتحوّلت خبرة محمد (ص) راعي الغنم إلى الجدارة والأهلية لقيادة الإنسان وتشخيص علله وأمراضه وعلاجه.

في يوم من الأيّام كان محمّد يرعى غنما كثيرة له قد تكاثر وبارك الله فيه، وجاءه أعرابي فنظر إليها وقال: أكلّ هذا لك يا محمّد؟ فقال نعم، أتعجبك؟ قال نعم، قال: هي لك، قال: أتهزأ بي؟ قال: لا، اذهب فخذها، فذهب الرجل بها وهو يلتفت خلفه خوفاً من أن يرجع محمّد عن قوله، فأخذ الغنم وذهب إلى قومه يقول لهم: "جئتكم من عند خير الناس، إنّ محمّدا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر أبداً". ظنّ الأعرابي في بداية حساباته أنّ محمدا (ص) قد أخطأ الحساب ووهب له الغنم كلها ولعله يرجع عن هبته، لكنه ما إن وصل إلى أهله بكل الغنمات حتى أدرك حقا أنه رُزق رزقا من غير حساب، وأنه جاء بالفعل من عند خير الناس جودًا وخُلقا.

أما محمد وإن كان يأنس بخلوة الرعي، حيث وجد فيها بابًا للتأمل، والتفكير في حيرته وضلاله، والتأمّل في الوجود، إلا أنه في وقت صفاء وجداني، وفي ساعة صفر ولحظة تحوّل، وتقلّب في الساجدين طلبا للحقيقة الكبرى، لا يرى طريقًا غير أن يفدي بأغنامه التي تكاثرت حرصا منه على مواصلة البحث في تجربة أخرى، لتغدو قيمة هذا الكثير من الأغنام عنده صفرا، ليرتحل نحو مرحلة جديدة، خصوصا وقد مضى على عمله سبع سنين ولم يعد هذا الباب يعطيه أفقا جديدا.

اختار محمّد مرحلة أخرى غير الرعي، عرض على عمه أبي طالب أن يأخذه معه إلى الشام للتجارة، بقي فيها حتى بلغ خمسا وثلاثين سنة، مدة عشرين سنة تقريبا بين مكة والشام وبين مكّة واليمن، ليس همّه الكسب المادي، فهو أمر مفروغ منه، ما دام يتعامل وفق مبدأ الشرف والصدق والأمانة، ربحت تجارته وعلا صيته، كما أنّ في الرعي كسْباً أغناه عن الحاجة وأفاض عليه مالاً أعان به عمه أبا طالب، استفاد من حياة التجارة، وتعرّف على طبائع البشر، فالمال والتجارة محكّ لقيمة الإنسان، فقيل: "أتعرف فلانا؟ نعم أعرفه. أتعاملت معه بالدينار؟ قال: لا، قيل: إذن أنت لا تعرفه"، ومكة وهي أرض الرسالات، وأرض القيم الأخلاقية والعلاقات الإنسانية، تغيّر وجهها، وتنكّرت لتاريخها، وانمحى الكثير من خُلقها، وضاق الخناق على الحنفاء (دين إبراهيم) من أهلها، وامتلأت بالتجارات فابتليت بالربا، والفواحش، والتسلّط، والطغيان، وخطف النساء، ووأد الفتيات خوفا من خطفهن وتدنيس عرضهن، وساد الكثير من قيم الشرّ والقبح والفساد، وامتاز عُبّاد المال، والراضخون للذلّ والهوان والاستعباد، استنكرهم محمد وتعالى على قبحهم وباطلهم، هو معهم وهو غريب عنهم، يتعشّق قيم الحق والجمال، أمين لا يخون، صادق لا يغشّ، لم يستعبده أحد ولم يطغ على أحد، يصل الرحم، ويصدق الحديث، ويحمل الكلّ ويُقري الضيف، ويُعين الضعيف، وينصر المظلوم، زايلهم لتمسّكه بحنيفية آبائه منذ إبراهيم الخليل، وقد خبَر من رحلات التجارة مصدر الشقاء وتآكل جوهر الإنسان عند أكثر أهلها، وهو لا يزال يبحث عن حيرته وضلاله، وما يغذّي تطلعه، حينها قرّر في لحظة وعي، أن يترك مال تجارته إلى شريكه السائب بن أبي السائب، ويتخلّى عنها إليه.

اختار مكانا بعيدا عن شواغل الناس وملاذّهم، في غار حراء، تصعد إليه خديجة تحمل له الزاد وتبقى يومًا ويومين وثلاثة وترجع عنه، ملأ وقته بالتأمّل في ملكوت السماء والأرض، أخذت الحقيقة تتجلّى أمام عينيه شيئا فشيئا، أجاب على الكثير من تساؤلاته واستفزازات عقله، وصل في هذه الرحلة العقلية الروحية إلى الله، واطمأنّ أخيرا بقطع هذه المراحل في حياته، فما اتّصل حتى وصل، فنزل عليه الوحي: "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربّك الأكرم الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم" وبعدها اتّجه إلى تغيير واقع مكة وما حولها، بل والعالم كلّه.

من طفولة محمد (ص) وصباه وشبابه، نستطيع التماس إنسانيتنا، من تجاربه وعقله وفطرته وروحه ولو بعيدًا عن دور الوحي في توجيه مواقفه وبناء قراراته، ولعلّ المواقف التي يوجّهها الوحي الربّاني تُصبح مانعًا أمام التأسّي والقدوة عند الكثيرين، جاعلين طاقة الوحي وتسديده سبب عظمة محمّد، في حين أعلن سبحانه (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)، وكما قال القائل: "إنّ محمّدا ليس مضطرا أن يكون إنسانا، لأنه كذلك"، وصل للإنسانية في طفولته وصباه فتأهّل للوحي والعناية الربانية ليكون معلّما وقائدا ودليلا وعونًا إليها.

وفّقنا الله تعالى لفهم خُلق محمد (ص) ونهجه وعقله وإنسانيته قبل البعثة وبعدها والله ولي التوفيق...

أُمّي..
قرأ رسالة الحياة

بقلم: أ. جلال القصاب

(إنّ وصولَ الـ "أنا" إلى مرحلة البلوغ تتطلّبُ عمليةً مسبقةً للكمال، وإنّ عمليّةَ تحقيقِ الذّات ينبغي أن يقومَ بها الفردُ بنفسه، ممّا يصعب عليه أن يستمدَّها بالوسائل الثقافيّةِ المعتادةِ التي يَمدُّها المجتمعُ، فلا يمكن تحقيقُ ذلك إلّا بعملٍ صبورٍ يشمل تعليمَ وتربيةَ الوعي ذاتيًا، بقرارٍ من الفرد نفسِه وإرادته، وبصدقِه مع نفسِه ووفائِه لها .. ليكونَ "الصادقَ الأمينَ").

تخيَّلْكَ إنساناً بلا دينٍ، لا أبَ ولا أمَّ لك ولا مدرسةَ وتعليمَ، وليس أمامَك إلّا مدرسةُ الحياة فماذا تصنع؟

إذا كنتَ يتيماً .. فماذا تفعل؟ فقيراً .. ماذا تصنع؟ بل ماذا تعمل إذا صرتَ أجيراً على أموال الناس؟

ماذا تفعل .. إذا كان عملُك فقط مراقبة الأطفال طوالَ النّهار أو رعايةَ غنم آخرين؟

إذا أساء أربابُ العمل معك وقسوا عليك وظلموك؟

إذا وُلّيتَ عملاً، وشغلتَ وظيفةً؟ فهل يهمّك كسبُ المال فقط؟

إذا كان زمانُك بلا (دين) ولا (مذاهب)؟ أو كان ثمّة بقايا (دين) لكنّه جائر ومليء بالخرافات والانحرافات والوصايات ودهاقنة الاستبداد؟

إذا هاجت حرب الفجّار (بين قريش وقيس عيلان)؟ وقومُك أهلُ شركٍ بلا (دين)، لكنّهم قاموا ضدّ من انتهك الدم الحرام في الشهر الحرام؟ أتُشارك معهم لأنّهم قومك أم لأنّ قضيّتهم نبيلةٌ ومحقّة؟ أم تتنكّف لأنّهم مشركون ووثنيّون وغيرها؟!

إذا شبّت الفتنةُ في بلدك وبين شعبك وقومك وليس لك دينٌ ومرجعٌ إلّا أمانتك وصدقك؟

إذا شرب الآخرون الخمر ودعوْك وليس ثمّة أمرٌ ولا آمرٌ يمنعك؟ وإذا دعاك آخرون للّهو ولو بمجون ليلة وليس ثمّة ناهٍ ينهاك ولا ناظرٌ يُنكرك؟

ماذا تصنع إذا كُنتَ شابّاً تبغي شريك الحياة؟ فمَن تطلبها شريكة (حياتك) وأنت بلا دين ولا مذهب؟ ألجميلة الشابّة أم الغنيّة ذات المال أم صاحبة العقل والقلب والشرف؟

إذا كُنتَ مستقطَباً بين طوائف قومك، حلفٍ فيه الأخيار يريد الصلاح ومبادئ حسن الجوار، وحلفٍ يريد الحرب والانتقام، ولا (دين)، فما تفعل، فأين تقع وماذا يكون دينُك (أي خُلُقك ونهجُك)؟!

من يقرأ حياة (محمّد) يجد الإجابات النموذجيّة لكلّ تلك الأسئلة ومزيدِها في كلّ أدوار الحياة، لدى رجلٍ أمّيٍّ عرف رسالةَ الحياة قبل أن تنتخبه الحياةُ (أو واهبُ الحياة) رسولاً لها إلى "الأحياء" ليُحييهم، إذْ (الله أعلمُ حيث يجعل رسالته)، وقد اعترف الهندوسيّ (البروفيسور راما كريشنا راو) في كتابه "محمد النبي" بأنّه: (لا يمكن معرفة شخصية محمّد بكل جوانبها، ولكن كلّ ما في استطاعتي أنْ أقدّمه هو نبذة عن حياته من صورٍ متتابعة جميلة؛ فهناك محمّد النبّي، ومحمّد المحارب، ومحمّد رجل الأعمال، ومحمّد رجل السياسة، ومحمّد الخطيب، ومحمّد المصلح، ومحمّد ملاذ اليتامى، وحامي العبيد، ومحمد محرِّر النساء، ومحمّد القاضي، كلّ هذه الأدوار الرائعة في كلّ دروب الحياة الإنسانية تؤهّله لأنْ يكون بطلاً)، بل زاد (في شخص رسولِ الإسلام رأى العالَمُ أندرَ ظاهرةٍ على وجه الأرض متمثّلةٍ في إنسانٍ منْ لحمٍ ودمٍ)!

(فمحمّد) الإنسان، لا تستفزّه هيجاتُ الحربِ إن ثاروا أو ثأروا، ولا الأموالُ والأملاك إن ولعوا وجمعوا، ولا التحزّب إن تحزّبوا وتقطّعوا، بل ركنَ إلى ينبوع برْدِ ذاته، وثبتَ إلى وقارِ جوهر إنسانه، ولم يستخفَّه الذين لا يُوقنون، لذلك ناداه بعدئذٍ النداءُ الخفيُّ الأعلى (وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم). فواجه تلك اللحظات بأجمل خصيصةٍ في الكائنات؛ تلك التي نسمّيها (الوفاء) للّحظة، بأن يستخلص من مكنونه أفضلَ مضمونه، ويتخيرَّ خيرَ ما للآخر من نفسه؛ من بذلٍ وحبّ ونصيحة وأمر بمعروف وبرّ وهدىً ومعونة وإصلاحٍ بين الناس، وعلى يديْه (بلا وحي) بل بمبادئ انطوى عليها، أخمد فتنة رفع الحجر الأسود، وألّف قلوباً، ووفّر حقوقاً، حينما هلّلوا لمدخله عليهم قائلين: (الأمين ارتضيناه، الأمين ارتضيناه)، فكان (الرحمة المهداة) للنّاس قبل أن يُكلَّف بها، وصدق المستشرق سنرستن

الآسوجي (لقد خاض محمّد معركة الحياة الصحيحة في وجه الجهل والهمجية، مصرّاً على مبدئه)، كان (إنساناً) قبل أن يكون نبياً وقبل أن يكون أيّ شيء آخر: راعياً، تاجراً، محارباً، زوجاً، نبياً، داعياً، مشرّعاً، زعيماً، لذلك تُعزى كلّ قصصه العظيمة حتّى بعد نبوّته، لا على أنّه نبيّ، بل على أنّه "إنسان" ولكنْ أيُّ إنسان؟!

أنبئ الشامخين بقداساتٍ مخترعة بمقالة الإنسانِ الشامخ (ص): (لا ترفعوني فوق حقّي فإنّ الله تعالى اتّخذني عبداً قبل أن يتّخذني رسولاً)! يُعلّمنا أنّه قبل أن يكون (رسولاً) كان (عبداً)، و(عبداً) تعني أنّه كان (منصاعاً)، و(منصاعاً) تعني (مُصغياً)، ولكن (مُصغياً) لأيّ شيء وليس ثمّة وحيٌ يُكلّمه؟

قد كان (يُصغي) لنداء اللحظة، نداء (شُعلة الحياة) الفعليّة التي تنبثق من داخله الإنسانيّ، نداء (افعَلْ ولا تفعلْ) الذّاتي الواعيّ لا التلقينيّ، يُصغي ليصنع أفضل الموجود لحظتَها، فيُظهر جوهرَ ما فيه، فيكادُ زيتُه يُضيء ولو لم تمسسه نارٌ، فلمّا أن جاءه الوحيُ توهّجَ نوراً على نورٍ كان فيه، وهيهات أنْ يأتي النورُ الثاني إذا لم يُوجَد ما يُمهِّد إليه من نورٍ أوّل مطبوعٍ، (فلا ينفعُ مسموعٌ إذا لم يكُ مطبوعٌ .. كما لا تنفعُ الشمسُ وضوءُ العينِ ممنوعٌ) كما قال ربيبُه عليّ.

فلذلك نحن ما لم يختلجْ ويتّقدْ شيءٌ، نورٌ، صوتٌ، من داخلنا الإنسانيّ فلن يُوقظنا صراخُ العالَمِ كلّه، ولن تُجدينا أصداءُ نصوصِ الرسالات كلّها، لأنّه قد حكمتْ الطبيعةُ ما أثبته كتابُ الخالق (إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ).

وإنّه لمن المؤسف أنّنا إذا كُنّا (بلا دين) فإنّنا نتوهُ في مادّيتنا وسفهنا وعبثنا، وإذا كُنّا (بدين) و(بمذاهب) فسنتوه في غرورنا الاصطفائيّ وجهلنا وعصبيّاتنا وتفاضلنا الخاويّ وتناحرنا، فلا ينفجر منّا الخيرُ، لا يُشرق إنسانُنا، لا نستطيع ملء إحداثيّة اللحظة التي نكون فيها بما يُناسبها كمالاً وجمالاً، ومن المُخجل جدّاً ونحن على آخر مشارف أزمنة الإنسان وتُخوم العلم وانختام الأديان، أنّ ثمّة إنساناً يتيماً بلا أبٍ وأمٍّ وبلا مُعلّم وبلا مرجعيّة علميّة ودينيّة لا يدري بكتابٍ ولا إيمانٍ بل كان (ضالاً) عن هذه المعانيّ بحسب القرآن، و(بلا دين)، ووسْطَ جاهليّة، أشرقَ ما بداخله، وتوهّج عقلُه، ليُوفّي واجبَ اللحظة أنّى ارتحلَ أو حلّ، ليجِدَ وُجودَه ويُوجِدَه بجودِه، فمشى ليُؤلّف القلوب لا ليبغّضها، وليصنعَ الحياة لا ليشوّهها ويقزّمها، أمّا بعد أن مدَّته السماءُ (بالدّين الخاتم) فقد انفجر في العالمين سراجاً منيراً.

فمن يجرؤ بعد هذا أن يقول أنّ (محمّداً) لو مات قبل الرسالة والدين، وهو على هذه الأخلاق الشريفة ومعالي النّبل، تائهٌ يبحث عن الحقيقة الكبرى، يُجيل عقلَه آنفاً أن يسجد لصنمٍ، إذ حين كان ابن نيف وعشرين سنة يبيع ويشتري ساومه أحدُ التجّار في بضاعة، فقال له

ركن إلى ينبوع برْدِ ذاته، وثبتَ إلى وقارِ جوهر إنسانه، ولم يستخفّه الذين لا يُوقنون، لذلك ناداه النداء الخفيّ الأعلى (وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم). فواجه تلك اللحظات بأجمل خصيصةٍ في الكائنات؛ تلك التي نسمّيها (الوفاء) للّحظة، بأن يستخلص من مكنونه أفضلَ مضمونه، وخيرَ ما للآخر.

قد لا تستطيع أن تكون نبيّاً فقد حُكِمَ أنْ لا نبيّ بعده (ص)، لكنّك تستطيع حتماً أن تكون (إنساناً محمّديّاً) كما كان هو قبل بعثته، تُحاور دخيلة ذاتك لترى كنزَك الكامن فتبدأ تُزيل طبقات الغبار عنه..

(أُتُقسم باللّات والعُزّى؟) فأجابه محمّد (ما عبدتهما قطّ حتّى أُقسم بهما)، من يجرؤ القفز على عدالة الله ورحمته ليقول أنّ ذلك الشابَّ السويَّ الوضّاءَ لو لم يُصبحْ خاتم النبيّين ومات لآلَ إلى نار وطردٍ وعذاب، كالذي يشيع الآن في تهويل هذا على كلّ بني الإنسان من عقلاء العالَم وخيّريه؟!

قل للأيتام، وكذلك للذين يتمسكنون باجترار العطف على مآسيهم، ويُلقون اللّوم على مُحيطاتِ الأقدار، أنّ ثمّة طفلاً (يتيماً) في التاريخ فقد أباه وأمَّه وجدّه، فقَدَ الواحد بعد الواحد بالعدد، فأعاله عمٌّه معسورُ الحال، فاستأذنه وخرج وهو ابنُ ثماني سنين يعثر في ثوبه يتوخّى أن يعثر على مهنةٍ، فبالكاد حظي أن يرعى غنم الآخرين بدريْهماتٍ وقراريط، يطرق أبوابهم ليُقنعهم بجدّه وكفاءته و(أمانته)، ليرتزق حلالاً يعيل به نفسه ويُساعد كافِلَه ذا العيال العشرة! ويتعلّم (إدارة الحياة) في أبسطها، وإدارة مشاعره منذ صغَرِه تجاهها!

قل للموظّفين والعمّال والتُّجّار أنّ ثمّة موظّفاً (أجيراً) لم يكن له (دينٌ) بعد، ولم يقرأ شيئاً من كُتب السماء، ولا موسوعاتِ العرفان والأخلاق، ولا دواوين إدارة الأعمال ولا علم النفس، بل استفتى قلبه فعرف، قدَح مكنون إنسانيّته فعرف، أنّ الوظيفة ليست لتكثير المال، بل للكسب الحلال ولاختبار عدم التعلّق بالمادّيات، وللتحلّي بالوفاء، والأمانة، والصدق، وحلاوة المعشر، والتسامح، فلقد أيقن بفطرته أنّ السماءَ السمحاءَ ترضى (وقد رضيَتْ) عن رجلٍ حاز خصلةً واحدة؛ الطيبة والتساهل: (كُنتُ أبايع النّاس وكان خُلقي الجواز) أي التسامح والتساهل في البيع، وأيقنَ بخُلقه وسجيّته أنّ التجارة ليست خداعاً ولحس العقول ونهب الجيوب بسحر الغشّ، بل فرصةٌ لمعرفة ألوان الناس ومعادنها والتواصل معها بالحبّ والتأثير فيها بشرف، وبناء العلاقات النافعة والصداقات المثمرة للنفوس، فالغاية تداولُ المنافع وجعلُ أنفسنا معابرَ لإكسابِ الآخرين قبل أيّ مكسب ذّاتي، وإنّها فرصةٌ سانحةٌ للخدمة وكسب معارف الحياة وتجاربها وثقافاتها، أمّا له (ص) زيادةٌ على ذلك، فكان لدراسة الحياة، والاطّلاع عن كثبٍ على منابع الفساد والطغيان فيها، للمباشرة في غرس قيَم الحياة في صحاري أصقاعها، فكان مع كلّ عمليّة شراء يشتري قلوباً، ومع كلّ عمليّة بيع يبيع قيَماً ومبادئ، فأصبحَ (حبيبَ قوم)، و(أمينَ آخرين).

قل لجامعيّ الأموال، وطُلّاب التحرّر كذلك، أنّ ثمّة شابّاً راعياً كثرتْ مواشيه، وتخلّى عنها في لحظةِ تأمّل عميقةٍ واحدة لراعٍ آخر بلا مقابل، حين قرّر أن يطلب الحكمة (ضالّته) في الأسفار يُتاجر فيتعلّم لوناً آخر من تجارب (الحياة) لتصقله، ثمّ حين جمع أموالاً من التجارة تخلّى عنها كلّها أيضاً لشريكٍ له، لأنّه قرّر أن يطلب حكمة التغيير وسعادة الصفاء في مغاور الجبال، علّه يلتمس في صمتها مدخلاً ينفتح منه على استنزاف المزيد من أغوار داخله، ويكتشف من صُمّها نفقاً ينفتح منه على صمّ القلوب التي قستْ في قومه من خيرها، يبحث عن رسالةٍ أسمى وأقوى وأعمق وأنفذ بعد أن استنفد جميعَ رسائله. قل للّذين يكبرون حين يستهزءون بمشاعر صغار الناس، أنّ رجلاً من الأوّلين جلس في الطريق ساعةً يُواسي طفلاً يبكي على عصفوره الميّت، ويُواسي الجياع والعبيد ويُجالس المحرومين، ويُناغي الغنم الصغار ويُطلق عليها الأسماء، يُطلق اسماً على كلّ ما اتّصلت به يداه، قلْ للذين يُسيئون للبشر، ويُفسدون البيئةَ ولا يحترمون الحيوان ولا الشجر والحجر، أنّ بغلته الشهباء سمّاها (دلدل)، وسمّى حمارَه (يعفور)، وناقتَه (القصواء)، وفرسَه (السحاب)، وعصاه (الممشوق)، وقوسَه (السداد)، وحربتَه

(النبعاء)، ودرعَه (السابغة وذات الفضول)، وترسَه (الموجز)، وسيفَه (ذا الفقار)، ليتّصل شعوراً نفسيّاً ووجدانيّاً بكلّ كائن، حتّى الأحجار كان يتلمّسها بكفّه الحنون ويعرفها وتعرفه (إنّي لأعرفُ حجَراً بمكّة كان يُسلّمُ عليَّ) وهذا قبل النبوّة، خلا من القسوة ومظاهر العجرفة والكبرياء والتبلّد بالأحاسيس، لأنّه أيقن (بلا وحيٍ بعد) أنّه قطرةٌ من قطراتِ ماء الحياة، دبّ لها وعيٌ فجعلتْ مهمّتها إيقاظ أخواتها الكائنات وزقّها بأنفاسِ الرّوح، والتعاطف معهنّ والتصبّر عليهنّ مهما جهلنَ وصممْنَ وتبلّدنَ ونمِنَ.

قلْ للذين لا يعفون عمّن آذاهم، ولا يَسْمُون على جراحاتهم وانتقامهم وأضغانهم، أنّ أمّياً قد عفا عن كلّ مَن آذاه، شخصياً، أو في الدين، قبل

فهو كما قالوا، لا أعظم منه، ولن يتقدّم عليه أحدٌ، لكنّ القاعدة التي صاغته متيسّرةٌ للجميع (أنّه لم ير نفسَه يملك شيئًا إلا فرصة استعمال ما بين يديه، إلا اللّحظة، بأن يملأها بما تستحقّ ليُحقّق امتلاءه أي اكتماله).

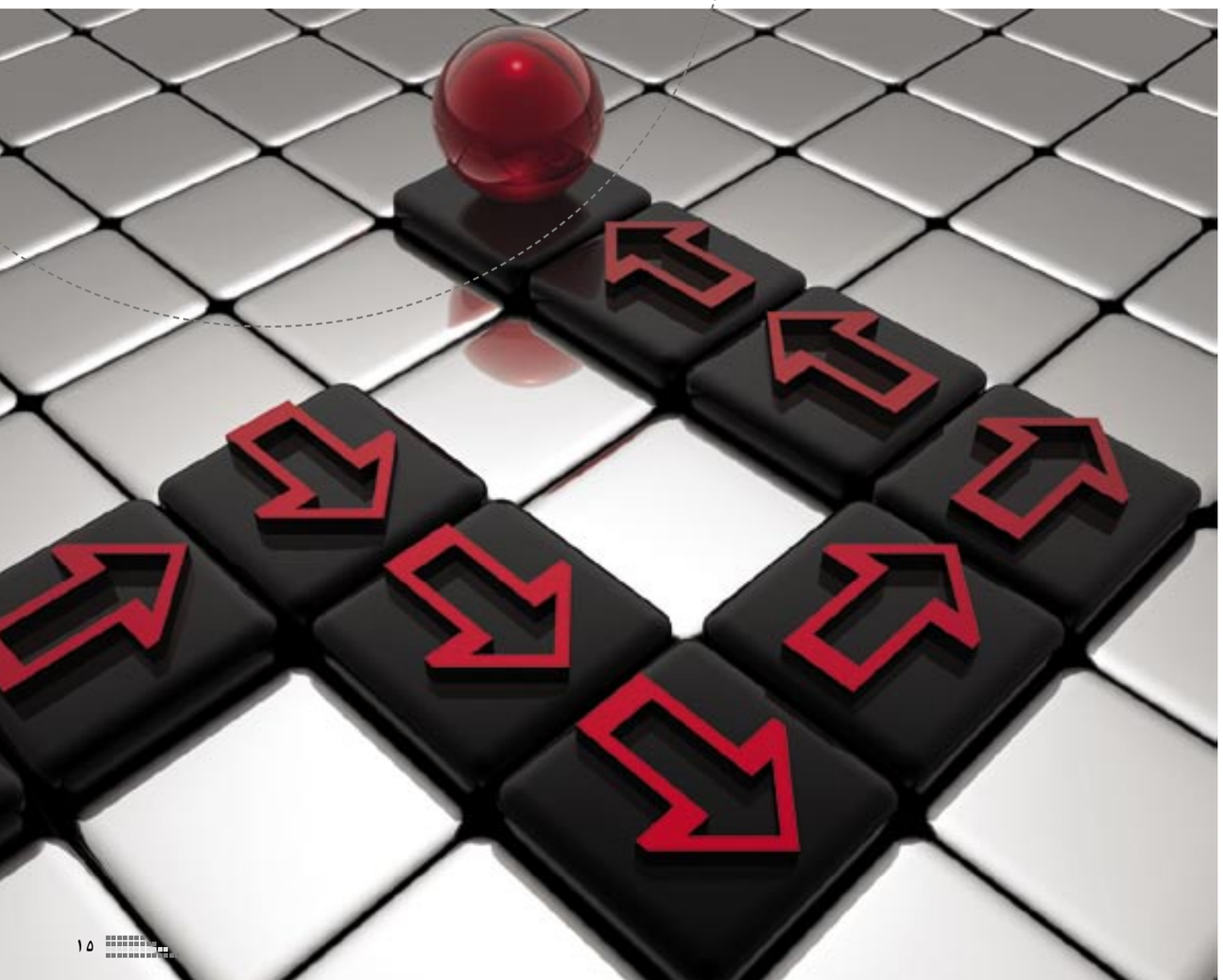

الاقتدار وبعده، في قلبه وأمام الملأ، ولو كان أعدى أعداء الدين ممّن شارك في قتل أوليائه والتمثيل بهم، فاستبدل بتلك العداوات حبّاً واحتراماً، وغرسَ بصفحِه الجميل حياءً في قلوب مناكديه ورافضيه.

لم يُخطئ صاحب كتاب (عظماء التاريخ المائة) العالِمُ والمؤرِّخ الأمريكيّ "مايكل هارت" حين جعل محمّداً أوّل قائمته، وعلّل ذلك (إنّ اختياري محمداً، ليكون الأوّل في أهمّ وأعظم رجال التاريخ، قد يُدهش القراء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كلّه الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الديني والدنيوي)، ولم يُخطئ الفيلسوف الإنجليزي "برنارد شو" حين قال (إنّ العالَمَ أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد)، وأنّ محمّداً (يجب أنْ يسمّى منقذ البشرية، وفي رأيي أنّه لو تولّى أمر العالم اليوم، لوفّق في حلّ مشكلاتنا بما يؤمّن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها).

ولم يُخطئ الفيلسوف الألمانيّ "غوته" حين قال: (إنّنا أهل أوربا بجميع مفاهيمنا، لم نصلْ بعدُ إلى ما وصل إليه محمّد، وسوف لا يتقدّم عليه أحد .. ولقد بحثتُ في التاريخ عن مثَلٍ أعلى لهذا الإنسان، فوجدتُه في محمّد).

كما لم يُبالغ الأديبُ والمفكّر الفرنسي لامارتين بقوله: (منْ ذا الذي يجرؤ على تشبيه رجلٍ من رجالِ التاريخ بمحمّد؟! ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه؟).

ولا الدكتور النمساوي شبرك حين زعم: (إنّ البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمّد إليها، إذ إنّه رغم أُمّيته، استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أنْ يأتي بتشريع، سنكونُ نحنُ الأوروبيّين أسعد ما نكون، إذا توصلّنا إلى قمّته).

فهو كما قالوا، لا أعظم منه، ولن يتقدّم عليه أحدٌ، لكنّ القاعدة التي صاغته متيسّرةٌ للجميع (أنّه لم ير نفسَه يملك شيئًا إلا فرصة استعمال ما بين يديه، إلا اللّحظةَ، بأن يملأها بما تستحقّ ليُحقّق امتلاءه أي اكتماله الإنسانيّ).

لا يستطيع أنا وأنت وغيرُنا أن يكون نبيّاً فقد حُكِمَ أنْ لا نبيّ بعده (ص)، لكنّك تستطيع حتماً أن تكون (إنساناً محمّديّاً) كما كان هو قبل بعثته، أي (عبداً)، أي (مُصغياً)، تُحاور دخيلة ذاتك (الإنسانيّة) لترى كنزَك الكامن، فتبدأ تُزيل طبقات الغبار بل والشحوم عنه، قد تكون الطبقاتُ متضخّمةً كالورم وبحجم شخصيّتك الظاهريّة كلّها، ولكنّها مصدرُ بُخلك وقلقك وانكماشِك ورداءتك وظلامك وانكسافِ شمسِ جوهرك، فإن تَقُمْ أنت في هذا الظلام الدّاخليّ الذي يلفّك لتُوقد فتائل شموعه فيك شيئاً فشيئاً، عند محطّات تنقّلك من مواقف (الحياة)، فعسى أن يبعثك أنت أيضاً ربُّك مقاماً محموداً غير المقامِ أو المقعدِ أو المهبطِ الذي أنت وأنا قابعانِ فيه.

> لم يُخطئ الفيلسوف الإنجليزي "برنارد شو" حين قال (إنّ العالَمَ أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد)، وأنّ محمّداً (يجب أنْ يسمّى منقذ البشرية، وفي رأيي أنّه لو تولّى أمر العالم اليوم، لوفّق في حلّ مشكلاتنا بما يؤمّن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها)

مولانا يا رسول الله يا من بعثت رحمة للعالمين، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، يا من لم تكن فظّاً غليظ القلب، بل كنت على خلق عظيم، نشهد أنك جئتنا رسولاً من أنفسنا حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوف رحيم، هذه أمتك لا زالت بها بقايا من روح، ثارت غاضبة لأجلك أن تهان وتحتقر، فأنت أنت لا زلت تسكن القلوب ولن تزال، فضلك علينا عظيم، كما كان فضل الله عليك عظيماً.

مولانا يا رسول الله أسئلة نوجهها إليك من القرن الخامس عشر لهجرتك المباركة، فأمتك قد وقعت فيما حذّرتها منه، عادت كفاراً يضرب بعضها رقاب بعض، كأنك أوصيتها بالاختلاف بدل الائتلاف وكأنك لم تناد فيهم من عميق بصيرتك ونبوءتك وأنت النبيّ البصير "أيها الناس إنّ دماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة اليوم الحرام في الشهر الحرام في البلد الحرام"! وكأنك لم تنادِ أنّ المؤمنين أخوة، وأنّ المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره!

مولانا يا رسول الله لقد عدنا بعدك كفاراً يضرب بعضنا رقاب بعض، اختلفنا من بعدك مذاهب شتى، وافترقنا فرقاً عديدة، لم تعد بيوت الله تجمعنا فإنّ لكلٍّ منا مساجده، لم تعد الصلاة تربط جماعتنا، فلكل منا جماعته، لم تعد المواسم تجمعنا فلكلٍ منا عيده، العلماء الذين قيل لنا أنهم ورثة الأنبياء صاروا هم وبالنا، بَدَّلوا وحدتك بالفرقة، ومزَّقونا بتعصبهم شيعا، فهم هم من قال لا تصحّ الصلاة مع فلان، وباطل عمل فلان، ونجس بدن فلان، وميتة ذبيحة فلان، ومشرك فلان وكافر فلان، ومفطرٌ في صومه فلان، وصائم في عيده فلان، فصاروا علينا بعدك نقمة لا رحمة، حتى عدنا أحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون! فرّقونا ففشلنا وذهب ريحنا، صيّروا بأسنا بيننا شديداً بعد أن كنّا رحماء بيننا، وأوصلونا لنكون كثيرين لا يباهي نبيُّنا بنا الأمم بل تتداعى علينا تلك الأمم، لأنّنا كغثاء السيل، كما حذّر الحبيب الشفيق (ص).

مولانا يا رسول الله هل يرضيك أن لا تعذر أمتك بعضها بعضاً فيما اختلفوا فيه؟ وأنت قبلت اليهود والنصارى والمجوس مع شهادتك بفساد الكثير مما هم عليه؟ ولكن لم ترض أن يؤذيهم أحدٌ من أمتك، وقلت أنّ من آذاهم بعد ذمتك لهم فقد آذاك، ولم ترض أن يهدم لهم كنيس ولا كنيسة، ولا تنتهك لهم حرمة حَيٍّ ولا ميت، وأن يرحم ضعيفهم ويُعطى فقيرهم من مال المسلمين، فإنّ ما أعطيته لغير المسلمين على المسلمين، يستكثره رجال الدين المسلمين على المسلمين!

مولانا يا رسول الله ترى من كنت تعني حينما قلت: من قال لا إله إلاّ الله فقد عصم ماله وعرضه إلاّ بحقه، وحسابه على الله؟ هل كنت تعني السنة أم الشيعة؟ الزيدية أم الخوارج؟ الأشاعرة أم المعتزلة؟ الصوفية أم السلفية؟.... أيّ المذاهب كنت تقصد؟ فإنّهم ينكرون على بعضهم صحة الإسلام؟ وهل كنت جاداً حينما قلت "من قال"؟ وهل يكفي عندك مجرد الإعلان بالقول للدلالة على الإسلام؟ فإن المسلمين يظنون أنّ في هذا سذاجة، وأنه لا بد من التفتيش عما في القلوب ولا بدّ من مراقبة الأعمال، إنهم قد نصبوا ميزان الحساب قبل ربهم، وفي دنياهم قبل آخرتهم، وقبل أن تدرك الناس شفاعة الشافعين.

يا مولانا يا رسول الله إلى من وكلتنا؟ أإلى كتاب الله؟ فقد عطّلوه بما زعموا أنها سنتك، أم إلى سنتك فقد ملأوها بالأكاذيب عليك، ووضع كل فريق فيها ما يؤيد مطلبه؟ أم إلى رجال الدين؟ فإنهم صاروا أس البلوى، ورؤوس الاختلاف والفرقة، يدَّعون أنهم الأمناء على الإسلام وهذه جثته بين أيديهم قد وزعتها مباضعهم إرباً، يقولون أنهم أطباء الدين وأهل الاختصاص فيه، وأنّ علاج قضاياه لهم دون غيرهم، وهو يستغيث مصروعاً بين أيديهم، أم يا ترى أنهم يظنّون أنّ الجسد الذي هم قاعدون عليه حَيٌّ معافى؟ ألا ذلك هو العمى والضلال المبين.

يا مولانا يا رسول الله، إنّ شاتميك في الغرب، قد كشفوا في الأمّة أنك لا تزال الشمس التي يمكن أن تجمع على ضوئها المسلمين، وإنّ تناديهم من كل حدب وصوب لنصرتك على اختلاف ما فرقتهم المذاهب لدليل على إمكانية عودة الروح لهذا الجسد الممزق، فإنّ حبك ومعروفك وفضلك لا يزال يسكن قلوب المسلمين، رغم كل سموم التمذهبات المفرقة، وهذا أسبوع مولدك العظيم الذي احتفلت به الطبيعة حين لم يكن يعرفك الناس، قد نودي به أسبوعاً للوحدة بين أمتك الممزقة، وإنها لتتمنع عن اتخاذه أسبوعا للدعوة لوحدتها، تصدها عصبياتها لمذهبيتها الضيقة، فيا أيها المسلمون اجعلوه أسبوعاً للوحدة ولا يصرفنّكم عن سماع الموعظة شنآن الواعظ، فقد تمنى رسول الله (ص) أن يُدعى لحزب مثل حزب الفضول ولو من مثل مشركي قريش، كيف وأنتم الأمة التي نوديت أن تستجيب إذا دعيت لما يحييها، فالوحدة دعوة الله ودعوة رسوله، حين ألّف بين قلوب المسلمين فأصبحوا بنعمته إخوانا. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) (الأنفال:٢٤)

بيان جمعية التجديد في مولد الرسول الأعظم ٢٠٠٦

"إذا كان ذلك هو الإسلام، فكلنا إذاً مسلمون"

الشاعر الألماني غوته

ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً

بقلم: أ. رابحة الزيرة

عندما تقرأ ما قاله بعض مفكّري ومؤرّخي وفلاسفة الشرق والغرب بشأن الإسلام ورسوله (ص) تكاد تجزم بأنّ هؤلاء فهموا الإسلام وتشرّبوا روحه أكثر من معظم علماء المسلمين، فتيمّم وجهك شطرهم لتتعرّف على أصالة الإسلام من كلماتهم متسائلاً: كيف قُرئ الإسلام المحمّدي بحيث أعجب به الهندوسي والبوذي والمسيحيّ والعلمانيّ؟ وكيف استوعب هؤلاء جوهر رسالته الموحّدة كما عبّر عنها برهافة حسّه الشاعري "غوته" حين قال: "إذا كان الإسلام معناه أن نسلم أمرنا لله فعلى الإسلام نعيش ونموت .. كُلّنا"، وقال عن مبادئه المؤرخ أرنولد توينبي في (دائرة المعارف التاريخية): "إنني أدعو العالم إلى الأخذ بمبدأ الإخاء والمساواة الإسلامي، فعقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم، وإنّ في بقاء الإسلام أملاً للعالم كله"، وقال عنه المؤرخ مونتغمري وات في كتابه (الإسلام والجماعة المتحدة): "إن سرّ القوّة في الإسلام أنه منح الفرد مقياساً للحياة هو مقياس الضمير الحرّ، وأنّه وهب الجماعة المسلمة مبدأ (الأمة) هذا المبدأ الذي تفرّد به الإسلام لم يزل ينبوعاً لكل فيض من فيوض الإيمان، ويدفع المسلمين إلى (الوحدة) في أمّة واحدة تختفي فيها حواجز الأجناس واللغات".

أُترى قد أزف اليوم الذي تشرق فيه شمس الإسلام من فضاء الغرب وسمائه مادام الإسلام الصافي النقي في الشرق قد طُوّق بسلاسل الطائفية، وسُجن في المذهبية، وأُلقي في غيابت جُبّ الظلامية والتكفير والتحزّب والانغلاق، ولم نعد نسمع من علمائه فضلاً عن جهّاله إلاّ دعوى التقاتل والاحتراب، والثأر والانتقام؟ أم أنّه قد غدا محتّماً علينا أن نرجع وراءنا إلى حيث تكدّست كل معاني العزّة والقوّة والحكمة والتسامح في رجلٍ نلتمس منه نوراً ونستلهم من صفيّ سيرته دروساً، نعتصم بها بحبل الله جميعاً لنعود إخواناً بعد أن مزّقتنا الاختلاف شرّ ممزّق، ونعود مسلمين بعد أن خرجنا من الإسلام بتقاتلنا فقد قيل أنّه إذا تشاجر المسلمون فهم ليسوا مسلمين حال تصارعهم لأنهم لو كانوا كذلك ما صاروا إلى ذلك.

لو أردنا أن نصف حال الأمة اليوم لما استطعنا أن نصفها بأفضل مما وصفها الإمام عليّ (ع) حال بعثة النبي (ص): "إنّ الله بعث محمدا (ص) نذيراً للعالمين، وأمينًا على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين، وفي شرّ دار" إلى أن يقول: "وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم .. الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة". اليوم تمرّ الأمة بأسوأ سنّي ضلالها مذ فارقها رسول الله (ص) فأضحت أردى حالاً حتى من أيام جاهليتها الأولى حين كان يتقاتل أبناء القبائل المختلفة وكانوا يعلمون أنهم يتقاتلون عصبية وانتقاماً، أو طمعاً وأثرة، ولم يدّعوا يوماً أنّهم يسفكون دماء بعضهم قربة إلى الله كما يفعل اليوم أبناء الأمة الواحدة والبلد الواحد، وكلّ فريق يعتقد أنّه على شيء والآخر ليس على شيء، فتنازعوا، ففشلوا، وذهبت ريحهم.

فالأمّة أحوج ما تكون إلى قراءة واعية لواقعها، وللأسباب التي أدّت إلى انقلاب مفاهيمها، بحيث تحوّل إسلامها العالميّ السمح -بشهادة القرآن، وبروائع من تفاصيل سيرة مبعوثه الخاتم (ص)- تحوّل إلى اتجّاهٍ فئويّ عصبويّ معادٍ لمعانٍ إنسانية سامية هو يدعو إليها، ليتسنّى لها أن تعيد الروح إلى الرسالة الخاتمة، التي تحترم كلّ الأنبياء والرسل، وتخدم أمّة الناس، فلا يعادي أحدٌ أحداً لاختلاف دين ومذهب وطائفة، ويرى العالم بأمّ عينه في سلوك المسلمين - ودون الحاجة إلى برهان عقليّ أو دليل نقلي - حقيقة قوله تعالى بشأن حبيبه محمد (ص): "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" ، ثم لتتبوأ مكانتها

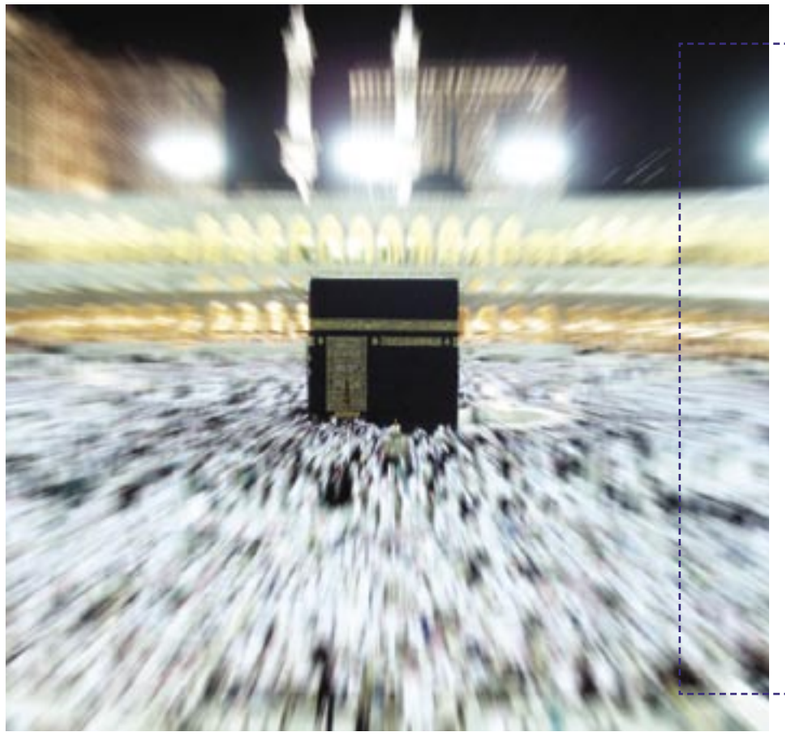

إن سرّ القوّة في الإسلام أنه منح الفرد مقياساً للحياة هو مقياس الضمير الحرّ، وأنّه وهب الجماعة المسلمة مبدأ (الأمة) هذا المبدأ الذي تفرّد به الإسلام لم يزل ينبوعاً لكل فيض من فيوض الإيمان، ويدفع المسلمين إلى (الوحدة) في أمّة واحدة تختفي فيها حواجز الأجناس واللغات.

للمؤرخ مونتغمري

بين الأمم في مزاوجة حصيفة بين مقوّمات الماضي من عزّة وقوّة ومنعة، ومتطلبات الحاضر من وعي معرفيّ وحضور حضاريّ، وممازجة دقيقة تتكامل فيها ثوابت الأديان فتأخذ بأحسن ما فيها اعترافاً منها بأنّ كِسَرَ مرآة الحقيقة موزّعة على مرّ التاريخ، لتعيد للعالم إنسانيته الضائعة، وتنقذ البشرية من الترنّح على شفا جرفٍ هار، فتعود إلى فطرتها الأولى من تآلف وتعاون.

بالأمس، كان محمد (ص) رجلاً واحداً فاستطاع مع نفرٍ قليل ممن آمن معه أن يغيّروا وجه عالمه القريب بعزيمة وإرادة، وشعور بالعزّة والقوة لا يُقهر، وبمبادئ وقيم لا يُضحّى بها ولو كان العدوّ كلباً عقوراً. اليوم كذلك بإمكان (الأمة) أن تقوم قيامة رجل واحد كمحمد (ص) وأصحابه وأن تُبدّل الأرض غير الأرض شريطة أن تحرّر فكرها مما علق به من أدران الجاهلية لتخرج من كهف مذهبيتها، وتتطهّر من دنس طائفيتها، بإعادة قراءة محمد (ص)، ورسالة محمد، وقرآن محمد، وسيرة محمد، قراءة تليق بمحمد (ص) الذي أرسله الله للناس كافة، وبنعمته أصبح الأعداء إخواناً فاستطاع أن ينهي اقتتالاً دام أكثر من ١٢٠ سنة بين الأوس والخزرج، وبحكمته آخى بين المهاجرين والأنصار وتصدّى لكل نزعة عصبية، وجمع بين الأبيض والأسود، وساوى بين العبد والسيد، كما يلخّص ذلك "هربرت ولز" المفكر البريطاني: "حج محمّد حجة الوداع من المدينة إلى مكة، قبل وفاته بعام، وعند ذاك ألقى على شعبه موعظة عظيمة .. إنّ أول فقرة فيها تجرف أمامها كلّ ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء، وتجعل الفقرة الأخيرة منها الزنجي المؤمن عدلاً للخليفة، إنّها أسّست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنّها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنّها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ، فإنّها خلقت جماعة إنسانية يقلّ ما فيها ممّا يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي، عمّا في أيّ جماعة أخرى سبقتها".

لقد جمع محمد (ص) همّه على توحيد المسلمين، ولم يتسامح مع أصغر بادرة تبدر من قومه تعيدهم إلى سابق عهدهم من العصبية الجاهلية، ولم يتخلَ عن مبادئه حتى في أحلك الظروف، فيُذكر أنه في غزوة أُحد حين شجّ الكافرون رأسه (ص) وهو ملقى على الأرض يشخب دماً، سمع أحد الأنصار ينادي "يا للأوس" فردّ عليه مستنكراً ومعلّماً: "بل قل: يا للأنصار"، وفي نفس الغزوة رأى محارباً من المسلمين هو "رشيدَ الفارسيّ" قد ضرَب عدوَّه على عاتقه، وهو يقول: "خذها وأنا الغلام الفارسيّ"، فقال له: "ألا قلت وأنا الغلام الأنصاري"! فتعرّض له أخو المقتول ذاك ليثأر منه، فضربه رشيد على رأسه قائلاً هذه المرّة: "خذها وأنا الغلام الأنصاري"، فتبسّم رسول الله (ص) وقال "أحسنت يا أبا عبدالله"، فكنّاه يومئذ ولا ولد له .

كما أنّه كان يتغاضى عن اختلاف اجتهادهم في العمل ببعض الأحكام بحسب أفهامهم، إذ أنّه ما أن عاد (ص) من معركة الأحزاب حتى أمر بتأديب بني قريظة جزاء خيانتهم وغدرهم، فاختلفوا في قوله (ص): "لا يصلّيّن أحدٌ العصر إلاّ في بني قريظة"، فمنهم من صلّى في الطريق عملاً بمفهوم الحديث لأنّهم رأوا أن غرضه هو الإسراع، وآخرون حكّموا منطوقه وصلّوا العصر في بني قريظة بعد خروج وقته، وقد أمضى النبيُّ فعل الفريقين، فكان يعنيه (ص) حينها توحيدُ الصف قبل كلّ شيء، وهو درس حريّ بنا أن نتعلّمه.

آن لنا أنْ نقرأ محمّداً (ص) من سيرته الأولى، لنستخلص من جذورها بلسمنا.

وفي حادثة أخرى تُذكر عن بعض الصحابة قولهم: "كنّا في السفر وفينا الصائم والمفطر، فما يعيب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم"، هكذا كان أصحابه (ص)، أمّا نحن فنختصم على الهلال والعيد والجزئيّات غيرها فرقاً متناحرة، مبطّلاً كلٌّ منّا عمَلَ الآخر على خلاف الخُلق المحمّدي وشريعته السمحاء.

إنّ أهم مقصد تحمله أمثال هذه الإجراءات المحمّدية، درء التشدّد، فالتباغض لمجرّد الاختلاف بين من أخذ بالرخصة ومن لم يأخذ بها، ومن يأتِ بالتشدّد والتباغض والعصبيّة - سيّما بعد أن صوّب النبيّ (ص) فعل المختلفين في هذه القضيّة وغيرها- فهو الذي خالف حكماً شرعياً وقضى على جوهر الدين وروح الشريعة لأجل التعصّب لقشر، فليس من حقّ أحد أن يتّهم الآخر بالابتداع أو مخالفة النص طالما يحتمل أكثر من معنى، وهذه هي روح الحادثة التي لم يستوعبها بعضُ أكابر طوائفنا كما لم يستوعبوا جُلّ سيرته (ص).

هذه القيادة التوحيديّة ذات البصيرة الهادفة، نجدها في موقفٍ آخر تدرأ عن المسلمين

اكتواءهم بنار الفتنة بينهم، فلمّا بلغ النبيَّ (ص) أن بني المصطلق يجمعون له خرج إليهم، حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع، فبينا رسول الله (ص) على ذلك الماء، وردت واردةُ الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له، يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه (وهو من المهاجرين) وسنان الجهنيّ (وهو من الأنصار) على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهنيّ: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فأعان "جهجاها" "جعَّالٌ" وهو من فقراء المهاجرين ولطم "سنانًا"، فسمع النبي(ص) بالذي جرى فقال(ص): "دعوها فإنّها منتنة".

هذا الموقف أغضب عبدالله بن أُبيّ -رأس المنافقين- الذي كان يمتلئ قلبه حقداً بعد ما زاد عدد المهاجرين في المدينة وانهيار زعامته، فأخذ يتكلّم بما لا يليق لكي يسترضي الأنصار ويكسب ودّهم - وكان عنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم (غلام حدث) - فكان ممّا قاله ليثير الفتنة بين المهاجرين والأنصار: "قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأوّل: سمّنْ كلبك يأكلك، أما والله لئنْ رجعنا إلاّ المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل"!

ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: "هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم"، فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله (ص) وذلك عند فراغه (ص) من عدوّه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ به عبّاد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله (ص): فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أنّ محمّدا يقتل أصحابه! لا ولكن آذن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله (ص) يرتحل فيها، فارتحل الناس، ثم مشى عبدالله بن أبي إلى النبيّ (ص)، حين بلغه أنّ زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه، فحلف بالله: "ما قلتُ ما قال، ولا تكلّمتُ به"!

فلمّا استقلّ رسول الله وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحيّاه بتحيّة النبوّة، ثمّ قال: يا نبيّ الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها؛ فقال له (ص): أوما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأيّ صاحب يا رسول الله؟ قال: عبدالله بن أبيّ، قال: وما قال؟ قال: زعم أنّه إن رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، قال: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت، وهو والله الذليل وأنت العزيز.

ثم مشى (ص) بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا

أمّا نحن فنختصم على الهلال والعيد والجزئيّات غيرها فرقاً متناحرة، مبطّلاً كلٌّ منّا عملَ الآخر على خلاف الخُلق المحمّدي وشريعته السمحاء.

أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نيامًا، فعَل ذلك (ص) ليشغل الناس عن الذي كان بالأمس، من حديث عبدالله بن أبيّ.

هذا هو النبي (ص) الذي كان راعيًا للأغنام استطاع بحنكته السياسية ووعيه لمواطن مكر عدوّه أن يطفئ شرارة حربٍ بين المهاجرين والأنصار بإدارة يعجز عنها خبراء إدارة الأزمات في يومنا، وذلك بسدّ باب الفتنة والتصدّي لها بما أوتي من حنكة وحكمة:

فرغم علمه بخطر هذا المنافق على السلم الأهليّ آنذاك، إلاّ أنّه رفض قتله لا بيد مهاجر ولا أنصاريّ، لعلمه أنّ لإراقة الدم حرقة لا تفتر إلاّ بالانتقام، وهذا ما كان (ص) يحاول أن يجتثّ جذوره من المسلمين وخاصّة أنّهم ابتلوا بحروبٍ طويلة كحرب الأوس والخزرج.

وحافظ على سمعة ووجاهة الدين الفتيّ من إرجافاتِ أعدائه، فلم يرض بتلويثه بمقالة الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه لخلاف وقع بينهم.

وأخيراً شغلهم بتوجيه طاقة تلك الجموع نحو عدوّ مشترك فأرهق أبدانهم بطول المسير، وشغل ألسنتهم بتكرار ذكر يُقال أنّه (يا منصور أمتْ أمتْ)، ليُبعدهم عن الهرج والمرج وأحاديث الفتنة.

هذا درس واحد فقط من سيرة رسول الله (ص) لو وعى قادة المسلمين وعلماؤهم حكمته لجنّبوا المسلمين العديد من الأرواح البريئة التي تُزهق كلّ يوم بسبب غياب روح رسول الله (ص) عنّا، وبسبب كلمة تمزيقيّة مِن منافق عليم اللسان تُنفث ها هنا وها هناك، ولاستطعنا أن نوحّد سهامنا إلى عدوّ الأمة الحقيقي الذي ما فتئ يكيد لها، كما كاد عتاةُ اليهود أيّامه (ص).

وكما أصّل محمّد (ص) للوحدة والإلفة بين المسلمين، وأصّل التعاون والاحترام والتعاهد مع غيرهم، كان تأصيله لمئات المآثر من قيَم العدل والإخاء والتسامح والحبّ والسلام، ما يُحاول العالمُ الآن بعد لأيٍ جاهِداً في تأصيله؛ من حرّية فكر، وقبولٍ للآخر، وتمكينٍ للمرأة، ومن تعدّدية وشورى وقبول الاختلاف، وإرساء قيَم التعايش، واحترام الحقوق؛ فلا تُهدم صوامع وبيع وصلوات ومساجد يَذكر فيها اسمَ الله أهلُ الملل المختلفة كلاً بطريقته، وغيرها من جواهر لو وعيناها لعثرنا على إنسانيّتنا الضائعة.

فآن لنا أنْ نقرأ محمّداً (ص) من سيرته الأولى، لنستخلص من جذورها بلسمنا، آن أنْ نرجع وراءنا نلتمس منه (ص) نوراً.

لو وعى قادة المسلمين وعلماؤهم درساً واحداً فقط من سيرة رسول الله (ص) لجنّبوا المسلمين العديد من الأرواح البريئة التي تُزهق كلّ يوم بسبب غياب روح رسول الله (ص) عنّا، ولاستطعنا أن نوحّد سهامنا إلى عدوّ الأمة الحقيقي الذي ما فتئ يكيد لها، كما كاد عتاةُ اليهود أيّامه (ص).

وأد العقل وهتك القداسة

قسم الدراسات والبحوث

في كلّ مسألة حياتية بات بحكم الطبيعيّ التفتيشُ عن حكمها الشرعيّ، أي عن (الحلال) و(الحرام) فيها، واستتبّ الأمر بتسالمٍ -غير معهودٍ قبلاً- أنّ لله تعالى في كلّ مسألة حكماً، يُفسَّر أنّه حكم الحلال والحرام، الذي من واجب الفقيه (فقط) استنباطه لإتاحته لأفراد الناس ليلتزموا بدورهم به ولا يحيدوا عنه، لأنّه حكم (الله) في تلك المسألة لهم أي حكمهم الشرعي الواجب أن (يتقيّدوا) به.

تعطّل بهذا (العقلُ الحرّ) كأداة تمييزٍ بين ما "يحسن" وما "يسوء"، وتعطّلت ديناميكيّة الحياة الاجتماعية وتدافعها وتلاقح عقولها، وسقط التعويل على مؤشِّر (الأخلاق والفطرة) في الاختيار، وخسرّنا تشكيل (الوعي) لدى الأفراد لاختباره -بممارسة الإرادة الحرّة الواعية- لتفعيل (قيَم الإخلاص) وتحصيل (سلامة القلب)، ووأدّنا طريق تنميّة (الحسّ الروحيّ) للإحساس بمنافع الأشياء وحسنها أو مضارّها وقبحها، تركنا كلّ ذلك وأعضلناه، وفرضنا على (الفرد) أن يلتزم بحكمٍ شرعيّ تلقينيّ صارم معلَّب، لأنّه الحكم الذي ينبغي الالتزام به من مجموع أدلّته من قرآن أو أفعال وأقوال نبويّة (سنّة شريفة)، بل من الثانيّ حصراً، ومن متابعات أفعال أسلاف رجال الأمّة على كرور الأيّام، بغضّ النظر صحّتْ تلك المتابعة أم أخطأت، أصاب الاستدلالُ أو المباني والقواعد الأصوليّة المستخدمة أو أخطأت، المهمّ أنّنا نحتاج إلى (حكمٍ شرعيّ) تلقينيّ، والذمّة لا تبرأ إلّا (بالتقيّد) بحكم شرعيّ السند والمستند، ولو أخطأ.

> **الدين اعتنى (بتحرير العقول) لا بلجمها، وبتعويدها على اكتشاف صلاح الأمور وفق مقاييسه (الفطريّة) أو موازينه (المنطقية) أو (الاستقرائيّة) من فسادها،**

بتكثّر موادّ (الحكم الشرعيّ) وتسلّقها على أشجار الفكر والإرادة، وغزوها وانبساطها على ميادين ممارسة (العقل) الفرديّ والمؤسّساتي (المجتمعيّ)، أو (الأخلاق)، أو (الروحنة) و(التربويّات)، يتحوّل الفردُ والمجتمعُ إلى كيانات تُمارس وتخضع لحكم "شرعيّ" لكن بغير جوهر فعليّ، بل كوثنٍ يُعبَد من دون الله، ليس لله فيه نصيب، فإذا ما امتنع المرءُ من مصافحة امرأة، أو حلق لحية، أو إطالة ثوب، أو تزيين حاجبيه، أو لبس ربطة عنق .. فيظلّ السؤال: لماذا فعل ذلك؟

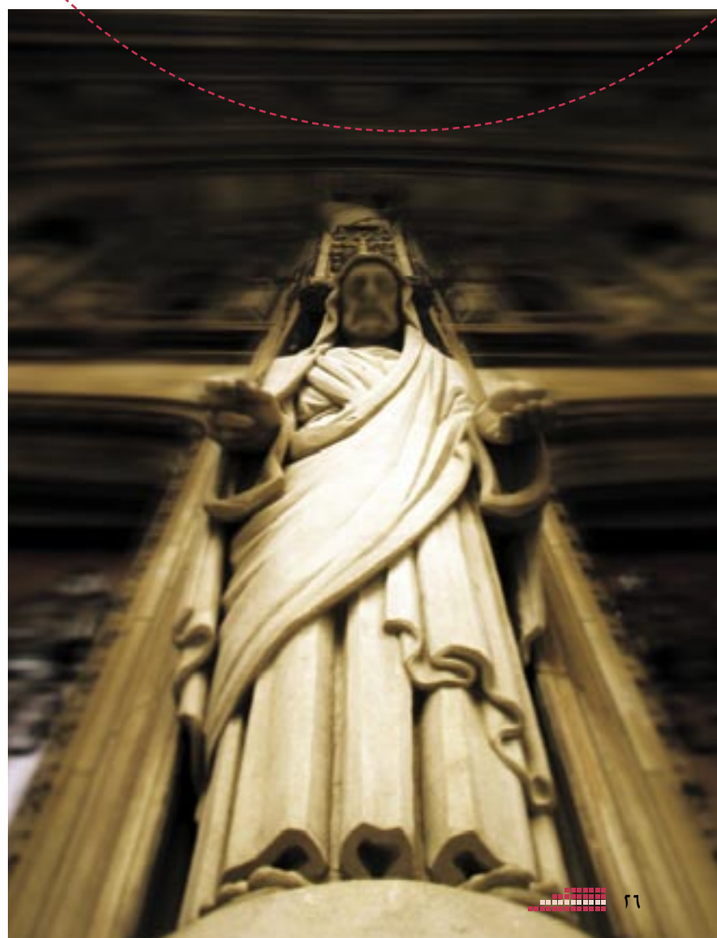

قد يكون الكلام الآنف غير مفهوم لكثير من الناس، لاحتياجِه إلى تفسير، سيّما أنّه خارج إطار التفكير الدينيّ الدّارج، وخارج إطار تفكير اللاديني لأنّه لاديني، فما هو نقدنا لهذه الحالة "الورَميّة" وما مقصدُنا؟

إنّنا ننتقد حالتيْن:

أ- تغييب علوم تفعيل وتهذيب وتفتيح (العقل) و(النفس) و(الروح) و(الخبرة الإنسانية والتجارب الاجتماعية)، عن إبداء رأيها في مساحاتها، وتسييد علم اسمُه (الحكم الشرعيّ) على كلّ علاقة إنسانيّة أو تفاعليّة أو تطوّر اجتماعيّ أو إبداع.

ب- من أجل اكتشاف أو اختراع هذا (الحكم الشرعي) نضطرّ إلى خطأٍ آخر؛ بالتوغّل بعيداً للتجسّس والعسعسة على أسرار الحياة البشريّة الخاصّة لنبيّنا (ص)، ما يُخِلّ بتوقيره المفروض بالمؤمن ذي الذوق السليم.

وبإمكاننا التعريف بمقصودنا في نقاط عمليّة لتسهيل الفهم:

١- ليس كلّ الأمور تحتاج إلى (حكم شرعيّ) مُلزم، يتحرّك الناس فيه أو ضمنه (آليّاً) لتفرغ ذممهم، وإلّا فالله سيقف لهم بالمرصاد، هذا تبشيع لدين الله الذي هو أسمى من هذه التعنيفات، وتضييع لجوهره القيّم في انتفاخات إلزامية تُبعد عن غرضه، كانت سيرة النبيّ (ص) العطرة متسامحة فيها أيّما تسامح بل لم تتدخّل فيها، إنّما هي سبيل (لتوصّي) رجال الدين في كلّ أمور الدنيا والدين، وهي عبوديّة الطاغوت والأحبار والرهبان المُتّخذين أرباباً والتي شنّعها القرآن.

٢- الدين اعتنى (بتحرير العقول) لا بلجمها، وبتعويدها على اكتشاف صلاح الأمور وفق مقاييسه وقيَمِه (الفطريّة) أو موازينه (المنطقية) أو (الاستقرائيّة) من فسادها، وأيّ استباق عُلويّ يُصادر هذا الحقّ فقد عاكس

الطبيعة وخالف الغرض الربّاني والمنهج القرآني في بناء هذه الخصيصة الاستكشافيّة الربّانيّة، حرّية العقول لترى نور الحقّ والصلاح بنفسها.

٣- معظم الأمور التي يتمّ حشر أو اختراع حكم شرعيّ لها، باستدعاء أو تنبير (سنة نبويّة) دليلاً لحكمها أو دليلاً معارضاً، هي ممّا يُمكن توصّل (الفكر الإنسانيّ) و(الفطرة السليمة) إليه بلا تحذّق، وهي قبل أن تُجعَل "سُنّة" كانت "قولاً أو فعلاً" حكيماً ومنطقيّاً، يُوضّح المصلحة، سواء الفردية، المجتمعية، الظرفية، كقضايا اللباس المحتشم، اللحية، تجميل الشكل، المعاشرة، المصافحة، المُقاتلة، وغيرها.

٤- كثير من تلك الأمور، ميدانها (التربية الإيمانية والسلوكية) التي تجعل القلب بازّاً مصونًا عافّاً عن علائق المادّة والأهواء والفساد الطبيعي، وليس موضوع "حلال وحرام" (بل حتّى الحرام والحلال منطقيّان ويتبعان المقاصد العقليّة)، كقضيّة مصافحة المرأة مثلاً، أدخلوها كجميع الأشياء في الحلال والحرام، ففقدت رونق الإقناع ومحاسن التربية، لتكون مجرّد قانونٍ يُكبِّل الإنسان بدلاً من إعطاء ثقافةٍ تربّوية يُدسّ بها الوعي الأسمى.

٥- بتكثّر متعلّقات (الحكم الشرعيّ) وتسلّقه على جذع شجرة (الإرادة) وخنقها، وغزوه وانبساطه على ميادين ممارسة (العقل) الفرديّ والمؤسّساتي (المجتمعيّ)، أو (الأخلاق) و(التربويّات)، أو (الروحنة)، يتحوّل الفردُ والمجتمعُ إلى كيانات تُمارِس حكماً "شرعيّا" وتخضع له، لكن بغير جوهرٍ فعليّ من التعقّل والإرادة والولاء، بل كوثنٍ يُعبَد من دون الله، ليس لله فيه نصيب، فإذا ما امتنع المرءُ من مصافحة امرأة، أو حلق لحية، أو إطالة ثوب، أو تزيين حاجبيه، أو لبس ربطة عنق، أو مقاتلة خصوم .. فسيظلّ السؤال: لماذا فعل ذلك؟

أ- لأنّه ساد في المجتمع هذا، ويخافُ المخالفة فيُعيرَّ أو يُنبذ أو تفسد سمعته، وهذا حال أكثر الملتزمين بالظاهر، فهم كأصحاب متابعة الموضات والصرخات، كلاهما مقهورٌ بالاستتباع، والتحكّم فيهما من بُعْد، أي من خارج الذات (عبوديّة للآخر).

ب- لأنّه في دخيلته فعلاً يحسّ بأنّ ذلك (دين الله) وليس (دين الجماعة) فقط، وبأنّه يُجرم في حقّ (الله) متى خالف، وسيُعاقبه سبحانه إن حلق لحية أو صافح امرأة كبيرة ولو ببراءة مصافحته أمّه أو أخته، وهذا إيمانه الداخلي يمنحه اللااكتراث بحال المجتمع ونظرته له، وهذا حال القسط الآخر المؤمن المتشدّد.

النتيجة، كلا الطريقيْن يصوغان كياناً غير واعٍ، إمّا أنّه جعل (عذاب الناس) (كعذاب الله) كما في الحالة الأولى، فأشرك بالله (المجتمعَ) و(الفقيهَ) و(الجماعةَ) و(الطائفةَ)، وجاء التزامُه لعائدٍ دنيويّ.

أو كما في الحالة الثانية، لم يفهم موضوعَ (اللحية) وغيرها من أساسِه وسياقه وجوهره التاريخيّ، ولا يعي مسألة (المصافحة)، ولا يدري أفَعل النبيُّ (ص) ذلك أم لم يفعل، فهذا غير مهمّ بالنسبة له (كمُكلَّف) و(مُقلِّد)، ويظنّ بأنّ (الله) سبحانه فعلاً واقف كجلّاد يُعاقب من (صافح) ويعفو عمّن (التحى)، فخاف (الله) سبحانه، أو خوّفوه منه سبحانه، من أمرٍ سبحانه بريء منه ولا ينظر إليه ولا يهتمّ به وليس في (دينِه) الحقّ.

من الجدير بالذكر أنّ طريق الطائفة الأولى هو الذي يُفرِّخ (المنافقين) و(المرائين) و(الانتهازيّين) و(المنفعيّين) و(الوصوليّين) و(المتنطّعين) و(المستأكلين) بالدين.

وطريق الطائفة الثانية هو الذي يصنع الجهل بالله تعالى (بالتشدّد) و(المبالغة في القشور وتعظيم توافه الأمور) و(تهديد الناس) بنكال العذاب، مع إفراغ الدين من جوهره الحقيقي؛ الوعي والروحنة (أي الإنسانيّة العليا) والفضائل النفسيّة وقيَم الأخلاق والحبّ والصفاء وبغض الرذائل الفطريّة الحقّة كالظلم والفساد.

ولقد رأينا أشباه كلتى الطائفتيْن يوماً في كربلاء تحتشدان على الحسين سبط النبيّ (ص)، فإنّ أصحاب (الشعائر) و(شرائع التشدّد) و(موسوعة الحلال والحرام) و(المظاهر) و(الطقوس) مِنْ صائمين وقائمين وقارئين ومُلتحين كانوا متوفّرين بكثرة في الصفّ المجرم، وخاطبهم الحسين (إنْ لم يكنْ لكم دين) .. فعلّمنا الإمامُ السبطُ (ع) أنّ (الدين) الحقّ شعورٌ داخليّ منشرحٌ بالانتماء إلى ربّ عظيم، يجعل صاحبَه يتجاوز الإحساس بهذه الحياة وقوالبها، لينعكس بمعاملة أخلاقيّة عُليا منبثقة من دخيلةٍ مستنيرة، تعرف الواجب وتحفظ الحقوق الإنسانية وتُحِبّ خير الآخرين، وتنتهي بنفسِها عن الحرمات وبشاعة الظلم والفساد..

٦- ينبغي أن تتكفئ مساحة (الحكم الشرعيّ) إلى حدودها الحقيقيّة، فكما ليس من اللائق أن نبحث عن حكم اندماج الهيدروجين بالأكسجين لتوليد الماء من الناحية الشرعيّة، لأنّه لا ناحية شرعية (حلال وحرام، وواجب) له، بل هو مسألة فيزيائية وكيميائيّة محضة، فكذلك هناك مساحات نحتاج فيها لعالمِ نفسانيّ، وأخرى لعلماء اجتماع، وأخرى لعالم مدنيّ، وأخرى لعلماء أخلاق وتربية، وأخرى لعالمِ روح وعرفان، وأخرى لعلماء تاريخ وعلوم إنسانية، وأخرى لفنّ إدارة، وأخرى لخبرات ميدانية وإحصاء، وتناول تلك المسائل ينبغي أن يتمّ وفق علومها وأدواتها، (فالمصافحة) مثلاً أو (اللحية) أو غيرها من مسائل الأحوال الشخصيّة والمدنيّة، لو نوقشت وفق ميادينها، لزاد الوعيُ بالتاريخ الإسلاميّ الأوّل، وعُرِفتْ علَل بروز مثل هذه العادات أو الالتزامات الحسنة أو الصالحة أو العلاجيّة الهادفة حينها وفْق سياقها وبيئتها الجاهليّة

وأدواتها المجتمعيّة التي تطوّرت بنسائها ورجالها إلى رشد الإسلام وعفّته، ولاكتشفنا فائدتها لنستصحبها عن وعيٍ بلا فرض أو نكتشف عدم سريان لزومها، ولنظرنا لها من منظار سلامة القلب من جهة (الروحنة) وصحّة التعامل الإنساني ويسريّته من جهة أخرى (الإنسانيّة)، أي أنّنا نؤسّس للوعي ونشرّع للقيَم وللروحنة بدلاً من جفاف الأحكام مع الجهل والتشدّد القشريّ، أو تعشيش الانتهازية والرياء المجتمعي.

٧- حين أخذ (فقه الحلال والحرام/الحكم الشرعيّ) ما ليس له، قام بأخطر عمليّة سرقة للوعي الفرديّ أن يتشكّل أو ينمو، وسلب القضايا موضوعها وحقلها الطبيعيّ (اغتصاب أحكامها وأدواتها)، كالذي أدخل القرآن معمل الكيمياء ليختبر صدقه، أو كالمادّي الذي يريد قياس الروح وإلزامها بقوانين الفيزياء، والأخطر من جميع ذلك سلب الصلاة على النبيّ وطعن التسليم له (إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (الأحزاب:٥٦)، فكيف تمّ سلب هذه الصلاة والتسليم؟

أ- إنّ النبيّ الأكرم (ص)، لم يُمارس أو يدَع تلك الأمور (المسمّاة "دليل الحكم")، لأنّه امتهن تشريعَ حلال وحرام، بل لأنّه إنسانٌ سويٌّ واعٍ يسعى للكمال، يعرف واجبه؛ سواء تجاهَ ربّه، أو تجاه محيطه من الخَلْق؛ أكانوا أتباعه المؤمنين به، أو أفراد أمّته ومواطني بلده، أو تجاه بيئته، يُمارسها كمتفاعلٍ وفاعلٍ واعٍ، وكروحانيّ، وكإداريّ، وكشريكٍ مجتمعيّ، وكمربٍّ أخلاقيّ، وكمهذّبٍ نفسانيّ، وكمُصلحٍ اجتماعيّ، ومُشرّعٍ مدنيّ، وزعيمٍ سياسيّ مبدئيّ، وأندرها جدّاً وأضيقها (كمشرّعٍ حلال وحرام)، ولمْ يُمارسها كمُجهِّلٍ للعقول ومسيطرٍ مُتحكّمٍ سالبٍ للإرادات والوعي؛ يقول للناس جميعاً احلقوا شواربكم وإلّا فسيُعذّبكم الله بأضخم نار وأحرّها! وهم لا يدرون لماذا وعلى ماذا وأيّ ربٍّ عظيمٍ للشوارب والنّار هذا؟!

> **(الدين) الحقّ شعورٌ داخليّ منشرحٌ بالانتماء إلى ربّ عظيم، يجعل صاحبَه يتجاوز الإحساس بهذه الحياة وقوالبها، لينعكس بمعاملة أخلاقيّة عُليا منبثقة من دخيلةٍ مستنيرة، تعرف الواجب وتحفظ الحقوق الإنسانية، وتنتهي بنفسِها عن الحرمات والبشاعة..**

لقد مارس (ص) بعضَها لمصلحة متوقّعة، ولجوهر تطهُّر، ولفلسفة حسنةٍ وحكْمة؛ تُورث صفاءً في القلب وتعارفاً وصلاحاً بين الناس وتعاوناً، ينبغي أن نعرفها (كمقاصد) لنتأسّى به فيها، ونتأسّى به هو لا بغيره أيّاً كانوا، فسبحانه قال (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (الأحزاب:٢١)، علينا أن نعرف جوهر أفعاله، أي روحها، لنأخذ منه اللبّ والمقصد، أيْ ما يُعرَف أحياناً فقهياً (بمناط الحكم) وليس الشكل، وإلّا كنّا مقلّدين أخلياء الوعي، وما حقّقنا صناعة نبيّ الله (ص) فينا وما تأسّينا به، بل صنّمناه، لأنّا جمّدنا قالبَه وتركنا روحَه التي أبدَعتْ منهاج الهُدى وحرّكت جوهر مضامينه في قوالب شتّى.

هذا النّوع من (الفقه) وهذه الطريقةُ الجافّةُ التأدّبِ مع قداسةِ نبيّنا الأكرم (ص)، لم تفرّق بين أحوال النبيّ كإنسان متفاعلٍ له حضورُه الحيّ وآراؤه واجتهادُه أيضاً، أو كزعيم له تدابيرُه، أو كحكيم وطبيب نفوس، أو كمشرّع (دينيّ) أو (مدنيّ)، أو كرسول مُبلِّغ، وافترضت بدمجها الأدوار جميعاً أنّ التلصّص عليه (كبشرٍ) قد يُطلعنا على ما سيُفارق فيه (ص) ما يفعله سائر البشر الأسوياء والأنبياء على مرّ التاريخ؛ في فراشه أو مع زوجته أو في بيت الخلاء أو في أيّ مكان ينبغي منّا عدم دسّ أنوفنا فيه، فقد بيّن (ص) تماماً أنّ حاله أكلاً وشرباً ونوماً ومعاشرة (نكاحاً) كأيّ بشرٍ سويّ لقول الله فيه وفي أنبيائه (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ) (الفرقان:٢٠)، وبذلك أمره الله أن يقول (قُلْ

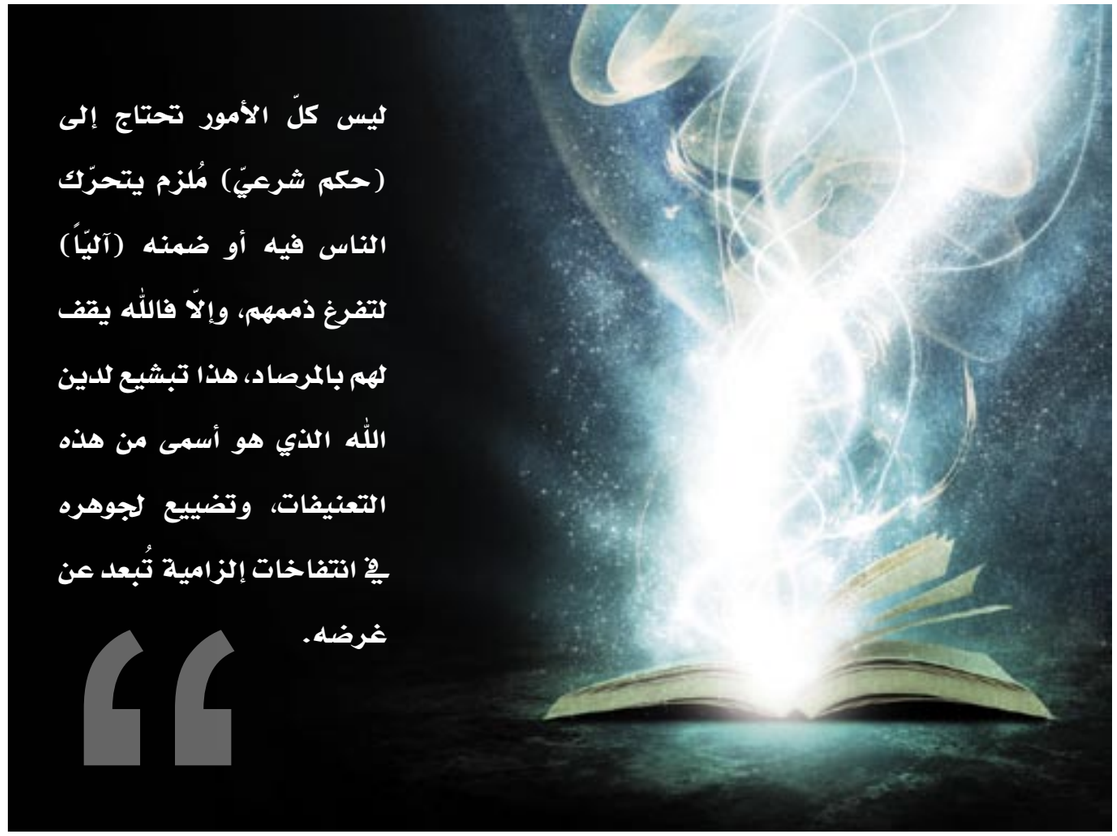

ليس كلّ الأمور تحتاج إلى (حكم شرعيّ) مُلزم يتحرّك الناس فيه أو ضمنه (آليّاً) لتفرغ ذممهم، وإلّا فالله يقف لهم بالمرصاد، هذا تبشيع لدين الله الذي هو أسمى من هذه التعنيفات، وتضييع لجوهره في انتفاخات إلزامية تُبعد عن غرضه.

إِنَمَّا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) (الكهف:١١٠)، فتركنا ما (أوحي إليه) ممّا أدّاه وبلّغه وهذّبنا به، واندسَسنا نفحص (بشريّته التي مثلنا) لنتّخذ منها "سنّة"، تركنا "إنسانيّته" ولاحقنا "بشريّته"! ما أغرب هذا! وهذا ليس معناه أنْ ليس له (ص) سنّة شريفة، بل له أشرف سنّة وأطهرها وبضمنها تقديسُه (ص) حرّية التفكير واحترامُه للعقل، فليست (سنّته) هذه التي خلطوها بكلّ شيء وانداحتْ على كلّ شيء، بل هي هنا عكس ما يُدّعى ويُتلقّف بالألسنة تماماً؛ فسنّته الشريفة توحيد الجهود الإنسانيّة، وتحرير العقول، واليُسر، والتعقّل، والحياء، والعفّة، والستر، والوقار، وحياطة الخصوصيّة الزوجيّة والآداب، وانتهاج مكارم الأخلاق، سنّته عرفها كلّ الناس جهاراً بمعاملته، ولم يستتر بها لنسترقها من بيوته!

ب- إنّ هذا الجفاف والجفاء الفقهيّ، لم يحترم (صلاتَنا على النبيّ (ص))، وصِلتَنا المقدّسة به، التي أوّل شروطها أن نُوقّره ونحترمه (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ) (الفتح:٩)، وليس عبثاً أن وقّره الله فجعل نساءَه جميعهنّ أمّهاتِ المؤمنين، فلا تُنكَحن مِن بعده أبداً، ليس عبثاً أن أدّب المؤمنين بالتعامل مع زوجات النبيّ (ص) بالخصوص من وراء حجاب/ستار، وتهديدهنّ (رض) بضعف العذاب إن أسأن لمقام النبوّة المقدّس، ليس عبثاً أن تحبط أعمال المؤمنين إن علتْ أصواتهم عليه (ص)، أو يفسقوا إن نادوه (ص) باسمه المجرّد كالسُّوقة ومن وراء الجُدُر، لكنّنا باسم (الحكم الشرعيّ) وباسم (لا حياءَ في الدين) الذي طبعاً تفسيره "معرفة الحلال والحرام" المنتفخين على القارّات السبع، مع أنّ تفسيره المُعلَن هنا (لا وقارَ للنبيّ ولا احترام)، قُمنا بـ (لا حياءٍ في الدّين) بانتهاك بيوت النبيّ، وتسوّرها، والتجوال في خصائصها ودواعيسها، وكيف صافح النبي وكيف لم يُصافح، وكيف لامس وكيف عاشر، وكيف ائتزر وكيف خلع والتحف، وكيف دخل الخلاء وكيف قعد، وكيف لاعب نساءه وكيف دخل بهنّ وطاف عليهنّ .. الخ، وهل دخل بفتاة صغيرة دون التاسعة أم لم يفعل، وهل أرضعت نساؤه رجالاً لإسقاط حرمة الاختلاء بهنّ؟!! وهل بولُ المعصوم (!) طاهرٌ ويُتبارَك به أم لا؟! وهذا السخفُ الأخير والسَّفهُ المُهين اجترَّه بعضُ مشايخ عصرنا وصنع منه زوبعة مُضلّة، ومرويّاتٌ كثيرةٌ يندى جبين المحبّ الغيور لتسميتها أو وضعها، فأيُّ صورةٍ رخيصة يتوخّى أولئك الساردون أنْ تظلّ عالقةً في ذهن المؤمنين عن نبيِّهم العظيم ومُقتداهم في مواقفه العظيمة (ص)؟ استسهلنا نقْل ذلك عن السيّدة عائشة (ره) وغيرها إبّان الحكم الأمويّ، وصمتت بقيّةُ نسائه (ص)!

ومع شكّنا في جميع ذلك، ومع شكّنا في كثير ممّا

نُسب إلى أم المؤمنين عائشة (ره) وإنْ أثبتته الصحاحُ وطار في الآفاق، لأنّه لا يُفيدُنا زكاةً ولا علماً، ولأنّه لا يُعلي من مقام النبوّة شيئاً، بل نفيُه جُملةً هو الذي يُعليه ويُمليها ويُعلينا، إلاّ أنّ المفارقة أنّنا لو سردنا بعضاً من تلك الأمور عن أشياخِ أحدهم الذين بجفافهم الروحيّ أو الأدبيّ طوّعوا لأنفسهم الخوض وتدوير التلفيق في المسائل الجنسية أو الاحتشامية وأسرار البعولة للنبيّ الأكرم (ص)، لاستنكر الخوضَ في ذلك ووجدها إهانة بالغةً أن ننشر كتاباً عنه كيف لاعب امرأته وهي حائض أو كيف اتّكأ في المرحاض أو كيف غمز أو داعب أو التحف، مع أنّ نبيّنا الأطهر (ص) لم يأمر أحداً بقول هذا عنه، ولم يخرج هذا الكلام في زمانه لا منه (ص) ولا مِن أخلص أصحابه وأقربهم ولا من زوجاته إبّان حياته، وهو المُبلِّغ الأمين الحريص على مصلحة الأمّة وتربيتها، لم يدّخر شيئاً عن تعليمهم ولم يضنّ بسرٍّ ينفع تهذيبهم، فلو أُمِر بكشف أستار بيته لفعل والله مُؤجِرُه ووكيلُه، ولو أراد بيانه لهم لأوصله بطرائقه القولية المؤدّبة الواضحة وما تركها ليلتمسها المتلصّصون على شئونه (البشريّة) الخاصّة، الذين كثُر متقوِّلُوهم عليه (ص) في حياتِه فكيف بعده، فقد سمّى المتلصّص على الاطّلاع عليها (وزغاً ابن الوزغ) تشبيهاً له بالحيوان المتسحلب على الجُدر ليكشف ما يُستر عنه ويُتعفَّف، ولم يجرأ أحدٌ الخوض في حشمة خصوصيّات النبيّ (ص) إبّانَها، إلاّ المرجفون في المدينة والغامزون فيه والمؤذون للنبيّ (ويقولون هو أُذن) والمرضى جنسيّاً المتحرّشون بأهلِه، وعُصبةُ الذين جاءوا بالإفك عليه (ص) وعلى نسائه (ره)، وحسدةُ الكُهّان اليهود الذين طعنوا في شرف وعفّة أنبيائهم من قبل ثمّ واتتهم الفرصة لتلفيق المرويّات (عن النبيّ وعليه) إبّان الملك الأمويّ.

ومن جهةٍ أخرى أمرَ اللهُ نساءه (ص) خاصّةً -وهم واجهاتُ العفّة وحاملاتُ أثر التديّن- أن يقَرْن في بيوتهنّ (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) (الأحزاب:٣٣)، ولَم يُقِمْ (ص) إحداهنّ متحدِّثةً بأسراره وأستاره الزوجية التي هي كأسرار غيره من البشر المحترمين تماماً، فهذا ممّا أُحدِث من بعده من وراء ظهره (ع)، فأغلب الظنّ أنّها دسائس أمويّة لُفقتْ ووُضِعَتْ على لسان نساء النبيّ (ص) المصونات (كما وُضِع الآلاف على لسانِه (ص))، لمآرب سياسية وطعونٍ دينيّة والحطّ من توقير النبيّ (ص) ليتساوى خفيةً (خليفةُ الله الروحانيّ) (بالخليفة الماجن)، ويشتبه (النبيّ) (بالملِك الداعر)، وتتحوّل (السُنّة الشريفةُ) من كونها (مشورةً) و(حرّية تفكير) و(احترام النساء) و(جهاد نفس ومادّة) و(اهتمام بأمور المسلمين) و(حضور واعٍ واجتماعيّ في كلّ القضايا الكبرى) تتحوّل إلى (ملاعبة النساء) وإلى (متابعات قشريّة) منزوعة القيمة، غرضُها شغل الفرد المؤمن وصوْغ عقله بتضخّمها فيه لتُخليه من مسئوليّاته الحقيقيّة في أمّته وتجاه موارده.

واستشرتْ هذه النسخة المصطنعة من (السنّة) وسرَتْ على حين غفلةٍ وسلامة نيّةٍ من المسلمين الذين يهفوْن لسماع أخبار نبيّهم الحبيب الغائب (ص) بتفاصيلها ولو كانت ما كانت، وليس بعيداً أن تكون أصابع يهوديّة آثمة -متسترّة بالإسلام ومقرّبة من بلاط الأمويّين- وراء نشرها وبذرها لأنّ أمثال هذه القصص والاهتمامات للحطّ من أنبياء الله المقدّسين (ع) نجدها مُكدَّسةً في التوراة المُدوَّنة، فودّوا لو تكفرون كما كفروا -بهذه الآداب والقيَم والأهداف- فتكونون سواء، ولقد نبّهنا نبيّ الله (ص) لهذا الانحدار الاقتدائي باليهود بدل اقتدائنا بسموّه الأخلاقيّ والمناقبيّ (لتركبنّ سنَنَ من كان قبلكم .. حتى إن كان فيهم من أتى أمّه يكون فيكم)، وهل هذا إلاّ قريبٌ من ذاك؟! فإتيان الأمّ أو الخدش بمقام النبيّين والتلصّص عليهم أنّى كان داعيه كلاهما (انتهاكٌ للقداسة) أعقب (تسفيه عقولنا).

ثمّ يأتي بعضُ رجال الدّين لممارسة مهنة تشريعهم التفصيليّ (أالله أمرهم بهذا؟)، فيدخلون من جحر الضبّ الذي حُفِر لهم ليستلّوا ولو من لحْم رسول الله أو كرامته ما يُثري اختصاصهم وشغفهم ونبوغَهم غير المثمر، تحت ذريعة التفتيش عن "سنّة مُطهّرة"! كان بالإمكان -إن كان لابدّ

لأنّنا اختزلنا المُعلِّم الأكبر (ص) بدور مفتي حلال وحرام، فاتنا أكبر ممارساته التهذيبيّة والأخلاقيّة والروحانية والإداريّة والإنسانيّة، ففقدنا التأسّي الحقيقي به في كلّ جوانبه الحياتيّة من جهة، وفقدنا الحياء معه من جهةٍ أخرى، ولذلك لن نعرف ما الذي فعله الرسول الأسوة (ص) حقّاً من تلك الروايات المتزاحمة، وما علّةُ فعله أو تركه،

أخذُها- لو كانت "مُطهّرة"، أخذُها من: (أقوالِه (ص) ووصاياه وتعاليمه)، أو من (عقولنا وفطرتنا السليمة)، فيجوسون بالتفتيش في بيت النبيّ الأقدس (ص) وتحت لحافه عن حكمهم الشرعيّ الغالّي والمفقود، الذي (بالمنطق) و(بالفطرة) كان موجوداً ومعروفاً عند كلّ إنسانٍ سويّ واعٍ، ولا يحتاج إلى ذكاء وحذقٍ لاكتشافه أو اختراعِه، ولا إلى هذا التجسّس والتعسيس وطلب الأدلّة الأمويّة الملفّقة أو الاستيناس بها، فهذا هو نفسه الممنوع قرآناً من الدخول لبيت النبيّ بلا إذنه، والاستيناس لحديث يُؤذي النبيّ ويستحيي فيه منكم، ولكنّنا لا نستحيي ولا نشعر.

هذا الأمر، هيّأ المنبتَ لإسفاف حاقدين تلبّسوا (بدين المسيح) جهلاً أو زيفاً، وعمدوا للإيقاع بين الأديان بطعن مقدّساتها، فلم يهمّهم تحصيل إنسانيّتهم، ولا البحث عنها تحت نعال أقدام نبيّ العالمين الشريفة (فهو نبيُّهم أيضاً)، ليتتبّعوا خطواته الطاهرة على أرض واقع تلك الأيام ويكتشفوا بنقاءِ مضامين أفعاله الوضّاءة، بل حرّكهم فقط حقدُهم الآنيّ المتأجّج بعصبيّات فئويّة عصرية (تبشيريّة!) عمياء، ما أودى بهم (لصراع الأديان المفتعل والآثم) أن يقعوا في هاديهم الخاتَم نبيّ الإسلام وعرضه وسيرته، والزعم -كأصحاب الإفك القديم- أنّه (ص) رجلُ جنسٍ وذو مغامراتٍ عاطفيّةٍ وولعٍ بالنساء وبالفتيات الصغار! وغيرها من مطاعن خسيسة مريضة نقّبوا ثغراتها من تلك المداخل التي لفّقناها نحن أساسًا عليه (ص)!

ج- النتيجة، أنّنا صرنا آليّين طلّاب (حكم شرعيّ!)، كالصحفيّ الذي من أجل سبقٍ صحفي ينتهك البيوت ويطأ الأعراض بلا خجل، وطأنا أكرمَ نبيّ (ص)، واستجلبنا روايات زُعِمت عنه، بعضها يُندى له الجبين، وبعضُها يترك للقلب شكّاً ومرضاً، وأخرى تزرع للعقل حيرةً، كالرواية التي نستحضرها لمناقشة قضيّة المصافحة (شرعاً)، رواية تقول أنّ النبيّ صافح النساء، وأخرى تقول أنّه ما صافح يد امرأةٍ قط، وبعضُها يزعم أكثر من هذا! فبم خرجنا؟

- سنخرج بحكمِ الفقيه الذي يُرجّح لنا حكمًا لنكون أحد الطرفين؛ (الملتزمين بالظاهر)، أو (المتشدّدين)، وكلاهما لن يُثمرا وعياً ولا فهماً ولا عقلاً ولا قلباً زكياً.

- سنعيش التعارض العقلي الذي لا يدري أي الروايتين صحيحة، ولماذا دائماً هذا التناقض في (مصادر الحكم الشرعيّ!)، ما دُمنا دائماً نتعامل معها (كمصادر حكْم) لا (كتاريخ) و(عادات) و(تدبيرات واعية بظروفها)، فضلاً عنها (كتلفيق)!

- مرضى القلوب، وهم كثُر، سنُقدِّم لهم وفرةً من الأدلّة بأنّ المصافحة لا بأس بها فالرسول (ص) فعلها وأكثر (على رواية)، ولن يهمّه قول الفقيه إذا أمِن لسانَ الناسِ وغضْبةَ طائفة الملتحين!

- المصافِح أو غير المُصافِح، كلاهما سيفعلان أو يتركان، عن وهْمٍ أو هوى، لا عن فهم، ولا عن قلبٍ متّصل بالله ليعرف واجبه تجاه نفسِه وزكاتها أو تجاه مجتمعه أو تجاه الآخرين والشعوب، وبدلاً من أنْ نُخرِّج أناساً تعرف واجبها ميدانيّاً وتُمارس براءتها وإنسانيّتها وتُطهِّر قلبها، خرّجنا أناساً اتّكاليّين يريدون الحكم فقط، بدلاً من أن نُعلِّمهم كيف يتوصّلون للإجابة الصحيحة لأمرِ قلبُهم وعقلُهم ونواياهم المتبدِّلة ونوعيّةُ الآخر بعضُ معطياتِ الوصول إلى نتيجة جوابه، نُعوِّدهم بخداعٍ أن يحفظوا جواباً واحداً، هو غير موجود.

(المصافحة) أو (المعاشرة الحسنة) مع المشرك وغيره، أو (السلام) على المشرك ومهاداته، أو التحدّث مع النساء، أو غيرها، ليست حكماً شرعياً، بل هي عاداتٌ إنسانيّة ومصالح، تستبطن خُلقاً أو جوهراً، تنتظم ضمن الوعي الإنسانيّ في اتّصاله بالآخر المتنوّع، تستدعي لممارستها أو عدمها معرفةً بالعادات الحسنة والسلوكيّات الخاطئة وصلاح النفوس وطبائعها وأمراضها، فهي ممارسةٌ إنسانيةٌ واعيةٌ قد تصلح أحيانا ولا تصلح، مع فرد دون آخر، في مناسبةٍ دون أخرى، لا أنّه قالب (حلال وحرام) جامد، لذلك تتعدّد الروايات في أفعال النبيّ (ص) بفعل الشيء وضدّه، لأنّه سلوك واعٍ ملتزم بالقيَم من جهة وبالمصلحة من جهة أخرى، وفق الموضوع والمناسبة والعُرف والبيئة والشخص المتعامَل معه.

- وأخيراً، لأنّنا اختزلنا المُعلِّم الأكبر (ص) بدور مفتي حلال وحرام، فاتنا أكبر ممارساته التهذيبيّة والأخلاقيّة والروحانية والإداريّة والإنسانيّة، ففقدنا التأسّي الحقيقي به في كلّ جوانبه الحياتيّة من جهة، وفقدنا الحياء معه من جهةٍ أخرى، ولذلك لن نعرف ما الذي فعله الرسول الأسوة (ص) حقّاً من تلك الروايات المتزاحمة، وما علّةُ فعله أو تركه، لأنّ ذلك لا يهمّنا، فلم يعُدْ (ص) أسوةً لنا، ولم يعُدْ فهمُ النبيّ (ص) كإنسانٍ كاملٍ نتحاكى به في السنن مطلوباً، لأنّ (صلاتنا وسلامنا عليه) زالا، "صلتنا السليمة" به انقطعت، وأقمنا "الصلة والتسليم" بشيخٍ وفقيهٍ ننتظر على ضوء رأيِه أن يقول لنا افعلوا أو لا تفعلوا؛ (هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ) (النحل:١١٦)، لذلك؛ مع جرأة تضييق حياة النبي (ص) كمادّة فقط للفتوى، لا أحد يُمكنه أن يُخبرنا ماذا فعل النبيّ (ص) فعلاً؟ وأيُّ الروايات المتناقضة في المسألة الواحدة أصحّ ولماذا، مع أنّ جميع المفتّشين الشرعيّين تسلّقوا سور بيته (ص) عنوةً، ودخلوا وتلصّصوا، وسردوا كلّ المستور الذي زُعِم أنّ النبيّ الأكرم الأطهر (ص) فعله ولم يفعله! (وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا) (النور:١٦)!

الراعي

بقلم: أ. أحمد عباس

توفي عبد المطلب وعمر محمّد (ص) عشر سنين فكفله بوصية منه عمّه أبو طالب، فلمّا انتقل (ص) إلى العيش الجديد وجد عمّه مثقلاً بالعيال دقيق الحال فلم يرضَ لنفسه أن يكون عالة على عمّه وقد رآه يعول عشرة من بنيه، فاقترح على عمّه أن يرعى الأغنام، رفض العمّ ذلك إذ كيف يرضى لنفسه أن يرى من أمر بكفالته يشقى برعي الأغنام صغيرًا، ولكنَّه ما لبث أن استجاب لطلب محمّد (ص).

أخذ (ص) يدور على البيوت بيتًا بَيتًا كلَّ صباح ليأخذ أغنامهم خماصًا يرعاها ليعيدها إليهم في المساء بطانًا، لقد لاقى من جفوة النّاس وسوء أخلاقهم ما لاقى، ولكنَّه كان يوطن نفسه على ما يسمع ويرى؛ فالكد الحلال عزّة للنفس، ومساعدة عمّة نبل وشهامة تهون عنده كلَّ الصعاب، وما يضيره أن يرى ويسمع ما يؤذيه ما دام هدفه ساميًا ونيته شريفة وقصده نبيلاً.

اكتسب محمّد (ص) من رعيه للأغنام علومًا نفيسة وفنونًا عظيمة وثروة كبيرة وخبرة نافعة. اكتسب ثقته بنفسه وقدرته على الاستغناء عن أهله دون أن يتخلى عن حياطتهم ورعايتهم، تعلّم كيف يكون مشاركًا في المسئوليّة دون الاستقلال عن الرعاية.

تعلمّ علم النفس الطبيعي، لّما عرف الطباع الأوليّة للحيوان فوجد أنَّ الحيوانات همّها علفها ما إن تشبع غريزتها لا يهمها بعد ذلك شيء، فالأغنام الصغيرة ترضع وبعد أن تأخذ كفايتها من لبن أمّها ورعايتها تستغني عنها، وكذلك الأمّ ما إن يشبّ وليدها حتّى تنساه، أمّا الإنسان فلا ، فالأبوان يظلان متعلقين بأولادهما وإن كبروا، والأولاد يبقون يحنون إلى آبائهم حتّى ولو نهضوا واستقلوا؛ لذا أسس الإنسان المجتمعات والحضارات أمّا الحيوانات فبقيت على ما هي عليه إذ لا تجارب ينقلها جيل الأنعام إلى من يليه. وأدرك (ص) أنَّ هناك قدرًا مشتركًا بين الإنسان والحيوان في الميول، يقابله فرق جوهري بينهما، فالإنسان مختار والحيوان مسيرٌ، وبقدرة الإنسان على الاختيار كان له شأن عند الله وعند النّاس وينبغي أن يكون له شأن عند نفسه، فعليه أن يختار لنفسه ما يسعدها ويزينها، وينأى بنفسه عمّا يضرّها ويشينها، وأن يستخدم عقله

وإلا فإنه سيبقى كسائر الأنعام سادرًا في لهوه وعبثه وغفلته وشهوته.

واكتسب خبرات أساسيّة لّما عرف النفس الإنسانيّة والنفس الحيوانيّة فيم تلتقيان وفيم تفترقان، وعلم أن التجارب الناجحة قيم حقيقية يجب أن توظّف في الأعمال الصالحة وإذا لم توظف في أعمال صالحة خيرّة تجسّد نجاحها بُخِس حقّها وحُطّ من قدرها وقيمتها الفعلية، وصارت كأن لم تكن، لذا وجد لزامًا عليه أن يحسن التعامل مع النفسين الحيوانية والإنسانيّة اللتين اجتمعتا في الإنسان.

تعلَّم كيف يكون قائدًا، فتعامل مع الأغنام كما كان يتعامل مع النّاس، يعمل لمصلحتها، يتخير لها المرعى الخصيب، والماء النمير، والظل الوفير، يصبر عليها حتّى تأخذ كفايتها من الرعي والطعام والشراب، كان يحفظها من الذئاب العادية، يذود عنها يحبها يعطف عليها، يطلق على كلّ واحدة منها اسمًا، بل حتّى عصاه التي كان يهش بها على غنمه لها في قاموس محمد اسم القضيب المشوق هكذا سماها، ومتى حان وقت الرحيل نادى بها ليجمعها ولا ينصرف حتّى يتأكد أنَّه لم تضلّ بحضرته شاة. كانت الطبيعة والمرعى مدرسة لمحمّد (ص)، تعلَّم الخلوة بنفسه قبل أن يتعلمها في حراء، كان عقل محمّد (ص) في كل يوم يكبر ويكبر، وفهمه يتعاظم ويتعاظم، وقيمه تتسامى وتتسامى، لقد اكتشف القيم النفيسة كالصدق والأمانة والإخلاص والرحمة والحبّ والإيمان والشرف والعزّة والصبر والعفة، تعلم كيف يكون واعيًا بين النائمين، وعندما اهتدى لنفائس القيم ميَّزها عن القيم الزائفة كالكذب والخيانة والقسوة والبغض والكفر والشرك والغدر والخسة، لقد تعلم محمّد (ص) كلَّ هذا من مهنة الرعي في حين كان غيرة من الرعاة يرعون وهم ساهون لاهون غافلون نائمون كما الأغنام التي ترعى غافلة ساهية لاهية، سنتهم كيومهم ودهرهم كسنتهم لا يكبر لهم في عمرهم عقل ولا يتسع لهم أفق.

من عادته إذا وصل (ص) المرعى أن يترك أغنامه ترتع وتلعب لينصرف إلى التفكر في عجائب خلق الله من أرض وسماء، وشروق وغروب، ونهار وغسق، وسحاب ومطر، وعشب

كانت الطبيعة والمرعى مدرسةً لمحمّد (ص)، إذا ما وصل (ص) المرعى ترك أغنامه ترعى لينصرف إلى التفكّر في عجائب خلق الله. كان يتأمّل في البذرة كيف تطمرها الرمال فما إن تحسّ ببرودة الماء حتّى تشقّ الأرض شقًا ليكون لها في كلّ يوم شأن، عرف محمّدٌ (ص) الله في المرعى صغيرًا.

وشجر، وسهل وجبل، وحياة وموت، كان يتأمل في البذرة كيف تطمرها الرمال فما إن تحس ببرودة الماء حتّى تشقّ الأرض شقًّا ليكون لها في كل يوم شأن. تساءل أهذا الخلق المحكم حدث صدفة، أهذا الخلق وجد عبثًا؟ فأتاه جواب العقل كلا، فهل وجدت يا محمّد فعلاً بدون فاعل وأثرًا من دون مؤثر؟ وهل رأيت في هذا الخلق خللاً أو فطورًا، وهل أبصرت عيناك شيئًا من غير حكمة ونظام؟ إذا كانت أبسط الأشياء لا تحدث صدفة فكيف بهذا الكون بسمائه وما حوت وأرضه وما أقلت ورياحه وما ذرت؟!!! كيف يحدث صدفة وأنت ترى الفلاح إذا لم يتعهد زرعه فسد، والراعي إذا لم يحفظ قطيعه كان فريسة السباع، والتاجر إذا لم يرعَ تجارته بارت وكسدت فما بالك بهذا الكون وما فيه من غرائب وعجائب؟ من الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض؟ من الذي يتحكم في حركة الشمس والقمر والرياح والمطر؟ من الذي يرعى تعاقب الليل والنّهار وانتظام الفصول؟ من الذي جعل الأرض صالحة للزرع والإنبات وتعهد الحبة حتّى صارت شجرة والشجرة حتى غدت ثمرة والثمرة حتّى صارت طعامًا شهيًا؟ من منّ يا محمّد؟ لا لا، لا يمكن أن يكون هذا الخلق خلق صدفة أو عبثًا، ولا يمكن أن يكون الإنسان خلق هملاً كهذه الأغنام السائمة، لابدَّ لهذا الكون من خالق عظيم، فمن هو هذا الخالق الذي خلق فأحسن، وصنع، فأتقن؟ ولماذا خلقك وميزك عن سائر المخلوقات يا محمّد؟

لقد عرف محمّد (ص) اللّه سبحانه عبر النظر في خلقه، وعرف صفات الخالق من خلال النظر في ملكوته، وأيقن أن الخلق العظيم يدل على خالق عظيم، وأن الخالق عقلاً يجب أن يكون أعظم وأعلى شأنًا مما خلق، فاهتدى إلى أن هذا الخالق يجب أن يكون عظيمًا كبيرًا حكيمًا جليلاً حليمًا عليمًا خبيرًا سميعًا بصيرًا قادرًا بديعًا قائمًا على تدبير أمر مملكته وهذه الآثار تدل عليه.

تساءل ما السبيل لمعرفة هذا الخالق الجليل؟ أهذه الأصنام والأوثان التي يعبدها النّاس تدلّ وتوصل إليه؟ أهؤلاء السدنة والكهنة والزعماء الذين نصبوا الأصنام ليأكلوا أموال النّاس بالباطل يرشدون إليه؟

كلا، هكذا أجاب فالخالق العظيم أجل وأسمى من أن يجعل صخورًا صماء بكماء عمياء لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر دالة عليه، وأنّى لحجرة أو خشبة نضدها الإنسان بيديه بعد أن أشبعها ضربًا بالمطارق والمعاول أن تكون مؤهلة للدلالة على الخالق العظيم، أيكون المهين دالاً على العزيز؟!!! أيعجز الخالق أن يدلّ على ذاته بذاته؟!!! أيليق بالإله القادر أن يوكل تجارًا مستغلين أو سدنة سارقين أو زعماء فاسدين ليكونوا أدلاء عليه، هذا خلاف العقل والمنطق والبرهان.

وأخيرًا اتخذ قراره أن يطلب اللّه مباشرة دون وساطة صنم أو وثن أو سادن أو كاهن، وأن جبينه أعزّ من أن يعفره بين يدي أصنام عاجزة كسيحة لا تزيد عابدها ومقدسها إلا غيًا وضلالا، و أن لا يستسلم لإرث بالٍ لا يقنع عقلا ولا يسكن قلبًا.

عرف محمّد (ص) أن القيم نوعان؛ قيم حقيقيّة ثابتة وقيم زائفة زائلة، وأنَّ الثابت الباقي من القيم يعرف بمقايسته بالزائل الفاني، فالمال قيمة محايدة موقوفة على تصرف المرء ، فإن ملك المالُ الإنسانَ كان المال له سيدًا وكان هو للمال عبدًا، ومن ملكه المال عدّ من الخاسرين. وإن ملك الإنسان المال وأنفقه في المحامد والمنافع والخيرات فهو الحرّ حقًا لأنَّه أعتق نفسه من سطوة المال وأسره، وجعل المال وقاية لشرفه وعرضه.

لذا لمّا مرّ به رجل في المرعى ورأى قطيعه ينساب بين السهول بين آكلٍ وشارب، وراكضٍ ورابض، ولاهٍ ولاعب، وصاعد ونازل، تعجب أنَّ يكون لغلام في الخامسة عشرة من عمره كلّ هذا القطيع فقال (ص) أتعجبك كثرتها؟ قال: نعم، قال خذها فهي لك.

سبحان اللّه أعطاه قطيع غنم دون سؤال؛ لأنَّه وجد أن المال يزول أمّا ما يتركه المال الموهوب من أثر فلا يزول فهل وجدت من يجود بكل ما يملك غير محمّد (ص).

أسرع الرجل وساق القطيع أمامه وهو لا يكاد يصدق ظانًا أنَّ محمّدًا (ص) قد يرجع عن قوله، ومن حقّه أن تذهب به الظنون أيَّ لأنّ عيناه لم تكتحلا بفتى أكرم وأسخى وأجود من محمّد (ص)، عادة الكرام أن يجودوا ببعض ما يملكون أمّا محمّد (ص) فشأن آخر. وكان هذا دأبه لما كبر وتزوج السيدة خديجة (ع) أبى أن يأكل من مالها شيئًا فأشارت عليه أن يستقل بتجارة ففعل، واتخذ السائب بن أبي السائب شريكا له، وما لبث أن انشغل (ص) بهمومه وتحنثه وبحثه عن الحقّ فوهب نصيبه لشريكه. فسلام عليك أيّها النبي الإنسان،وصدق ربُّكَ حين وصفك فقال: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)، وحين قال (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ).

إنما أنا بشر مثلكم أمازحكم

بقلم: أ. ساجدة سبت

لطالما أُحيط رجال الدين، العلماء، المدراء، الرؤساء، والآباء، ومعظم الشخصيات التي لها مكانتها الاجتماعية المرموقة في حياتنا، بهالة (قدسية) تصوّرهم فوق الحالات والانفعالات الطبيعية لأي كائن بشري، حتى أن الدهشة تلازمنا عندما نرى رئيس دولة يتجوّل في الأسواق ويمازح الباعة، وتغمرنا الغبطة لرؤية مربي يلاطف أبناءه لما نعتقده من مثاليّة في علاقته بهم، وكأنّ الملاطفة والمداعبة والمزاح المحبّب، أصبح من جملة قائمة الممنوعات التي تزري بوقار وهيبة الشخصيات ذات الوجاهة الاجتماعية أو السياسة أو الدينية.

ثقافة تلزم أصحابها في مراكز القيادة والإدارة حفظ المقامات والمسافات، باحترام الفوارق الوظيفية والطبقيّة واجتناب الدعابة اللطيفة مع من هم دونهم، وأخرى مرتبطة بالأعراف تمنع مدرساً أو مربياً فاضلاً من مزاح طلبته وأبنائه، لإيمانه بأن الشدّة والتجهّم أنجع أساليب التربية وتعليم الإحترام.

المناهج الدراسية بدورها ركّزت على هيبة النبي محمد (ص) ووقاره وشدّته على الكفّار، فعندما نريد أن نصف ملامحه (ص) وهو بين أصحابه لا نتصوّر إلا ذاك العظيم ذا الخلق الكريم، الذي تعلو محياه ابتسامة هادئة وتقاسيم توحي بالصلابة والقوّة لتزيده هيبة ووقارا، لا يتكلّم إلا بما هو حقّ نافع، ولا يحادثهم أو يحادثونه إلا في مسائل الدين والأخلاق، وهموم الأمّة وقضاياها، وأمور صلاحها. في حين أن سيرته العطرة تفصح عن نقيض ما نعتقد أو ما صُوِّر لنا، فبالعودة إلى زمن الرسول (ص)، وبالتجوال معه نسمع عجباً، بدءًا من بيته عندما أخبره أهله بقدوم زاهر بن حرام الأشجعي من البادية وهو الرجل البدوي، دميم الوجه، ولكنه عظيم المنزلة والمكانة في قلب النبي (ص) حتى أنه كان يقول بشأنه: "إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه"، نشهد روحه المرحة مع صحابته وهو يتربص بزاهر عندما كان مشغولا ببيع بضاعته، ليفاجئه باحتضانه من خلفه وهو لا يبصره، رافعا إياه عن الأرض في مرح، و"زاهر" يحاول التملّص ويقول: أرسلني (اتركني) من هذا؟

وحين التفت "زاهر" وعرف أنّه النبيّ (ص) – أحبّ الناس إلى قلبه- فرح بمداعبته، وجعل يجتهد أن يظلّ ممسكاً به، يضمّه إلى صدره الشريف.

رفع "النبيّ" (ص) صوته وهو يقول ممازحاً وممسكاً بـ"زاهر" وسط السوق: "من يشتري هذا العبد؟ من يشتري هذا العبد؟

وفي جوّ من المرح وضحكات الصحابة الكرام قال "زاهر": يا رسول الله إذن تجدني كاسداً!

فرد عليه النبيّ (ص): لكنك عند الله غالٍ...

وبمصاحبته (ص) في الطريق نراه يمازح صهيبا، فعندما مرّ (ص) بجماعة يأكلون التمر، ووجد صهيب بن سنان الرومي جالساً بينهم يأكل معهم، دنا النبي (ص) من صهيب فرأى الرمد قد أصاب عينه، فسأله وقد رسم على وجهه علامات الاستغراب والتعجب:

أتأكل التمر وبك رمد؟

قال صهيب مستجيبا للسؤال بروح النكتة التي كلّمه بها (ص):

إنما أمضغ بالناحية الأخرى!!

فضحك النبيّ (ص).

وفي موقف آخر نجده (ص) يمزح مع امرأة عجوز، جاءته تطلب أن يدعو لها بدخول الجنة، فردّ عليها ممازحاً: "لا تدخل الجنّة عجوز"!!

بكت المرأة العجوز عند سماعها قوله، إلا أنّه سرعان ما أوضح لها: أما سمعت قول الله تعالى في نساء الجنة :(إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا)، وأفهمها بأنّها حين تدخل الجنة لن تدخلها عجوزًا ، بل شابّة حسناء، ففرحت واستبشرت.

وبمجالسته مع أهل بيته وبين صحابته، نعجب منه (ص) حين يتقبل دعابتهم ويبادلهم إياها، بل ويوضّح لمن لم يعتدّ عليها بأنّه بشرٌ مثلهم يمازحهم وتسرّ نفسه لمداعبتهم.

وهذا الإمام علي (ع) يبادره النبي (ص) بالدعابة عندما كانا يأكلان التمر، فيغافل "عليّ" النبي ويضع أمامه كلّ النوى ويقول ممازحاً:

أأكلت كلّ هذا يا رسول الله؟

ويرد النبيّ: أنا أكلت البلح فقط بينما أنت أكلت البلح بنواه!!

بانقضاء جولتنا في رحاب سيرته (ص)، ندرك يقينًا بأنّ محمدا (ص) كان بشرًا وإنسانا، أزال الفوارق، وأذاب حواجز السنّ والمكانة والمال وقرّب القلوب وأشاع السرور، مشيعاً الألفة بين أصحابه، وساعياً لبناء اللحمة، بملاطفة هذا ومداعبة ذاك، بمرحه مع الصغار، وبمزاحه مع الكبار، وقد أهدانا درسًا بأنّ العظمة تتحقّق بلين القلب لا بتجهّم الوجه، وأنّ الاحترام يزداد بطيب الكلام ولين القلب (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ).

النبي (ص) وتصحيح التاريخ

بقلم: م. حسن خير الله

تعتبر المرحلة التاريخية التي تواجد فيها الرسول (ص) مرحلة مفصلية في تاريخ البشرية إذ اختفى بعدها اتصال السماء بالأرض، وعليه كان على الرسول (ص) صياغة أمة تقود البشرية معتمدة على مبادراتها وكان عليه أيضا أن يبين لهم معالم الهداية وأعلامها حين لا وحي يوحى ولا كتاب ينزّل بعد القرآن الكريم. مثل هذه الرؤية أدركها النبي تماما وكانت واضحة عنده حتى في أحلك الظروف، وهي ذاتها الرؤية التي أراها لأصحابه وهم محاصرون والأحزاب يسدّون الآفاق من حولهم، في أجواء رهيبة وصفها القرآن الكريم: (إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا)، في هذه الظلمة الحالكة ينبّئهم بأنّهم سيغنمون أساور كسرى، ملك إمبراطورية فارس العظمى في ذلك الزمان. وما هذه الحادثة إلا معلم واحدٌ من جملة من المعالم التي نستدلّ بها على وضوح الرؤية عند رسول الله (ص) والتي ترجمها إلى عمل جبار متكامل بهدف تأسيس النهضة الحضارية المنشودة للأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وحيث أن للتاريخ اليد الطولى في خلق الواقع الجديد والمستقبل المنشود، كان لزاما على الرسالة الإسلامية وحاملها مراجعة التاريخ مراجعة جذرية لكشف الزيف وتعديل التحريف وإرجاع الكلم المحرف عن مواضعه، والذي حوّل العزّ إلى ذل، والحرّية إلى عبودية، وعبادة الواحد الأحد إلى عبادة الأهواء والأوثان وتجيير الدين في صالح الأشرار والحفاظ على مصالحهم كما قال الإمام علي (ع) في ذلك: "إنّ هذا الدين كان أسيراً في أيدي الأشرار، يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا.

> قام الكهنة بنسبة القبائح إلى أنبياء الله لتسويغ امتهانهم المفسد بمثلّث (المال- السلطة – الجنس)

فقبل بعثة النبي(ص) انتقل التحريف إلى كل مفاصل الدين والإيمان، من المعارف العليا التي تشكل بدء الخلق وخلق الإنسان وأخبار السماء، إلى مسخ تاريخ عظماء الأمّة من رسل وأنبياء ومصلحين، إلى تحريف الجغرافيا وتمليك الأرض من لا يملكها، ورفع الوضيع ووضع الرفيع. ولقد بيّن القرآن الكريم التشويه الذي لحق بتاريخ الدين ممن اؤتمنوا على كتابته من أهل الكتاب ونقله إلى الأجيال اللاحقة في آيات عدة حسب تنوع تحريفهم وتفننهم فيه كما في الآتي: (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)، و(وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)، بالإضافة إلى العديد من الآيات التي تنقل التفاصيل الحقيقية للأحداث الماضية ضمن عملية دقيقة لرسم صورة المستقبل للأمة.

فما كان من النبيّ (ص) إلا أن صدع بالأمر حيث اختار المدخل الصدق ببيان الحقيقة الناصعة بلا مواربة ففضح التحريف وشنّ الحرب عليه بلا هوادة، والآيات تتنزّل عليه داعمة له في تبيين الحقّ وإظهار ما خفي منه، وجعل البديل الصحيح الذي يبّدل ذلّ الأمة عزّا، وضعفها قوّة، وفسادها صلاحاً، قائلا: (رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) (الإسراء ٨٠-٨١).

وسنلقي الضوء اختصاراً على أربعة مواطن تصحيحيّة كبرى في سيرة النبي (ص)؛ أولها عقائدية وهي تحويل عبادة الأصنام إلى عبادة الله الأحد، والثانية اقتصادية بمحاربة الربا، والثالثة اجتماعية بوضع النظام العادل، والأخيرة معرفيّة بتصحيح مفهوم (الأمة) التاريخيّ والنظر إلى الأجناس.

أولاً: عبادة الأصنام

كان التفرّق وحميّة الجاهليّة من أبرز سمات المجتمع في أمّ القرى وما حولها، حتى بات الحفاظ على نظام العلاقات الأخويّة الجديد من المهمّات الصعبة جداً

القرآن الكريم يؤكّد بأن كثيراً من الانحرافات العقائدية ، تُسبّبها الطبقة العليا من المجتمع "الملأ"، "المترفون"، "المستكبرون"، وعبادة الأصنام لا تخرج من هذا السياق، فلم يعرف المجتمع الإنساني أنّ المترفين حرصوا على الدفاع عن الأديان والإيمان، وما دفاعهم الشرس عن الأصنام وعبادتها إلّا دفاع عن الذّات والنفعيّة، إذ أنّ السلطة والنفوذ مرتبطان ببقائها، فالأوثان جزءٌ من نظام سياسي اقتصادي، وآلة سيطرة يندكّ الفقراء والطبقات الدنيا والمستغفلون بين تروسها، فالسلطة السياسيّة تتّكئ ولابدّ على شرعة دينيّة، وسدانة الأصنام توفّر ذلك، فهي رموز لأحلاف القبائل الوافدة على مكّة، ويعظم الصنم ويجد له موقعاً في الصدارة والمركز من مكّة بعظم القبيلة وقوّة نفوذها، كما يصغر وينأى بصغر القبيلة وقلّة خطرها، كماركات الشركات هذه الأيّام ومساحة احتلالها للمواقع الدعائيّة وواجهات التأثير، فخدمة ثلاثمائة وستّين صنماً بالنسبة لقريش تعني ولاء نفس العدد من القبائل تتوافد من الجزيرة العربيّة وتجلب معها المنافع والتجارات، عبرّ القرآن عن هذا بقوله (وَقَالَ إِنَمَّا اتَّخَذْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (العنكبوت:٢٥)، فحينما ارتبطت مصالحهم بهذه الانحرافات، كان تزيين هذا الانحراف وتكريسه يستحقّ بذل الأموال والمنافحة لمردوده المضاعف، عدا عن الملحقات (الدينيّة) الجائرة الممثّلة لاحتكار الدين، التي تستغلّ الموسم في المنافع الشخصية لدرجة أنّهم منعوا الطواف إلا بملابس تُشترى منهم، فصار الفقراء يطوفون بالبيت عراةً مضطرين.

لقد استعاضوا بالأصنام عن عبادة الواحد القهار، لأنّ بغيتهم استعباد الناس بها، فليست هي مظهراً فكريّاً حرّاً بل مظهر استعباد واستغلال واحتكار للسلطة، لذلك كان شعار (لا إله إلا الله) خطيراً تلك الأيّام لأنّه يقوّض مصالح الطغمة المستنفعة ويُحرّر الفقراء من سياسات الظلم ورسوم الاحتكار. ولهذا قام النبيّ (ص) بعدئذٍ بدكّ هذه الأصنام، لرفع الطغيان والفساد، وأرسل أصحابه حوالي مكّة ليحطموها لأنّ (توحيد الله) يعني استعادة الحرية والمساواة ورجوع "مكّة" ذات منافع للناس كافّة؛ العاكف فيها والباد، بلا ظلم ولا إلحاد.

وكلّ هذا تجد له اليوم شبيهاً في الدين، والسياسة، والاقتصاد، لو فتّحت عينيك!

ثانياً: الربا

نشأ الربا في عملية طويلة من التشريع والتشريع المضادّ من قبَل اليهود الذين قال الله سبحانه وتعالى عنهم:(وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) (النساء: ١٦١)، وذلك في محاولة السيطرة على المفاصل الحيويّة للقبائل العربية وتحويل النّاس عبيداً لهم لقولهم الباطل وفق اعتقادٍ مادّيّ منحرف: (لَيْسَ عَلَيْنَا

فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)(آل عمران:٧٥))، وذلك كجزء من عملية شاملة تقضي بالتحكّم في مداخل التجمّعات السكنية من القرى والأمصار والتحكّم في صادرات وواردات تلك المناطق وفرض الرسوم والتحكّم في الأسعار وفرض القوانين الجائرة التي تحتكر التجارة ومعايش الناس. فهم عندما قدموا يثرب سكنوا أطرافها وقطعوا سبيل التجارة عن أهلها إلّا عن طريقهم وحسب شروطهم ويقومون بعمليات المعاوضة بدلاً عنهم ويجمعون إليهم أفخر أنواع التمور وأجودها ثمّ يعيدون مبادلتها بما هو دونه صاعاً بصاعين أو أكثر وقد فشت عدوى هذه السنن إلى المجتمع وأصبحت قوانين معمولاً بها إلى عهد الرسول (ص)؛ وقد رُوي أنّ النبيّ (ص) بعث أخا بني عدي الأنصاري فاستعمله على خيبر، فقدم بتمرٍ جنيب (جيّد)، فقال رسول الله (ص): (أكلّ تمر خيبر هكذا؟ قال: لا والله يا رسول الله، إنا لنشتري الصاع بالصاعين من الجمع (تمر خليط)، فقال النبيّ (ص): (لا تفعلوا ولكن مثلاً بمثل أو بيعوا هذا واشتروا بثمنه من هذا، وكذلك الميزان). وهذا ما كان يسمى بربا الفضل، ومؤداه أن فئة تحتكر السلع وتتحكّم فيها ويبقى البقيّة من المجتمع أجراء لا خيار لهم، وتستمرّ هذه الحالة لأجيال متعاقبة تفصل المجتمع إلى طبقتين؛ طبقة مستكبرة مستأثرة وأخرى كادحة مستعبدة. أما النوع الآخر من الربا وهو ربا النسيئة وهو الدين بزيادة ومضاعفتها كلّ عام، فيستعبد به الأفراد ويثقلّ كاهلهم بما لا طاقة لهم بدفعه. وبهذا يصيّر الحر أسيراً بيد الدائن ذليلا قباله لا يرفع إليه طرفه، فهو لم يتديّن إلا لحاجة ماسة، ولم يؤجّل الدفع إلا لعدم القدرة، فأنى له دفع الزيادة والزيادة تزداد أضعافا مضاعفة. فكم من حرّ شريف استُرقّ وذاق طعم الذلّ من هذا الباب، وكم من أبناء العزّ أصبحوا أجراء أو

قبل بعثة النبي(ص) انتقل التحريف إلى كل مفاصل المجتمع من المعارف العليا التي تشكل بدء الخلق وخلق الإنسان وأخبار السماء، إلى مسخ تاريخ عظماء الأمّة واستبدالهم بالسلاطين، إلى تحريف الجغرافيا وتمليك الأرض من لا يملكها، ورفع الوضيع ووضع الرفيع.

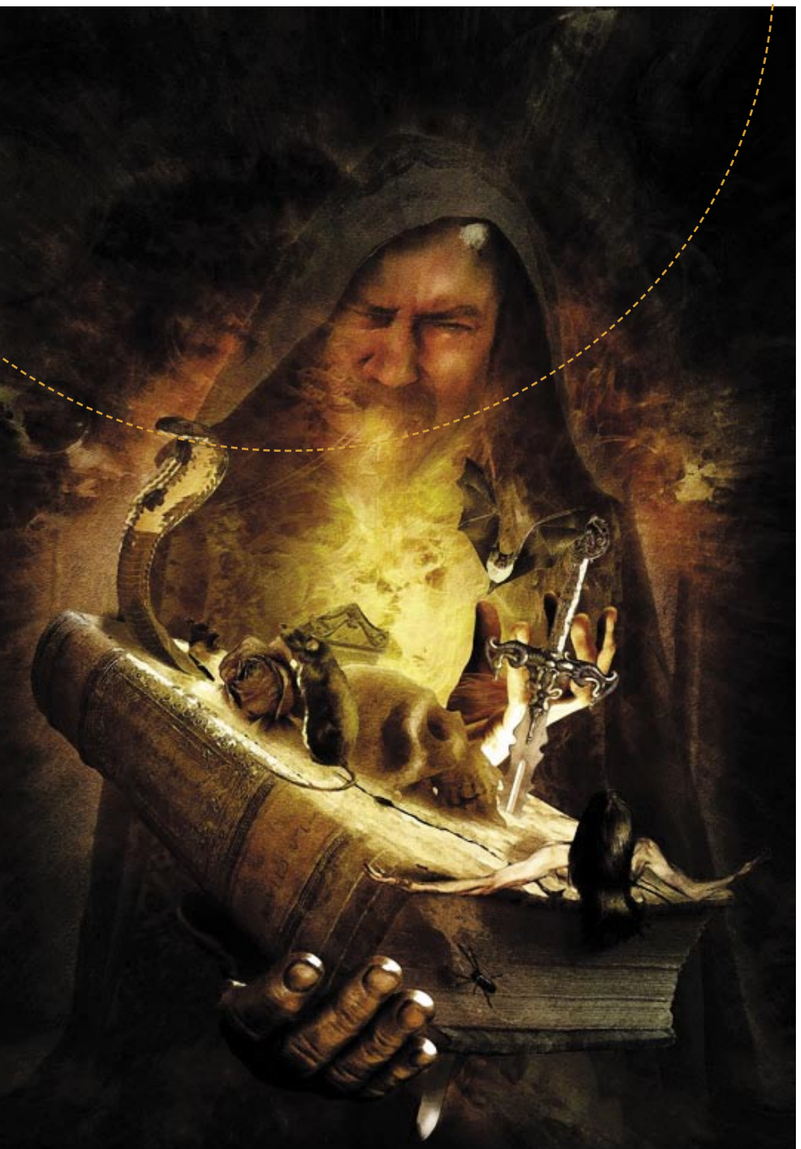

عبيدًا في أيدي الجشعين، وكم من حرائر بنات دُسّت تحت التراب لئلا ينتزعهنّ أربابُ الديون من أبيهم المدان المعدم، فيُصيّرنّ سلعاً وبِغاءً للقوافل والتجّار (وكلّ هذا عاد الآن بالمفسدين أنفسهم، عبر البغاء البشري المعولم، وتجارة الرقيق الأبيض).

فليس غريباً على حامل الرسالة (ص) ومعزّ الأمة بعد ذلّها أن ينادي فيها يوم فتح مكة: (وكلّ ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين)، وذلك بعد أن صدح القرآن الكريم بإنكار الربا وبيان تأسيس اليهود لهذه الممارسة الظالمة، والإذن بالحرب على من لم يذر ما بقي من الربا من المؤمنين، وراح جاهداً يزيل آثاره المقيتة على إنسانيّة الإنسان والحطّ من كرامته، وآثار ديونه المجحفة (كالتي يُستعبد بها الدول الآن من البنوك الدوليّة والدول المانحة!)، ففكّ دين الغارمين ودعا إليه، ودعا بنظرة المدين إلى ميسرته، وحضّ على القرض الحسن، وفكّ رقاب المستعبدين في كلّ بادرة وفرصة مناسبة وفي كلّ كفّارة شعيرة، ودعا إليها، ومنع إجبار البنات والجواري على البغاء، فمنع بذلك علّة سرقتهنّ واستعبادهنّ، وأكرم المرأة وأعطاها حقوقها لئلّا تُستذلّ بالحاجة، وشدّد العقوبة على الذين يسرقون الناس فتُعوزهم الحاجة أو يخطفونهم لبيعهم في أسواق النخاسة وجعل حدّ الحرابة حدّهم بتقطيع أوصالهم، وحارب الفقر وقال ليس بمسلم من بات شبعاناً وجاره جائع، وأمر بالصوم وبالتكافل والصدقات، وأوجد من مال الأغنياء والغنائم والأرباح والغلّات أسهماً وفروضاً تعود على الفقراء والمساكين والغارمين لئلّا تستعبدهم الحاجة، ومنع الخمر والميسر لأنّهما صناعة يهوديّة وبوّابتا الفقر والاستلاف ثمّ الاستعباد بالربا وبيْع العرض والبنات، وأخبر أنّ الذي يكذّب بالدين هو ذلك الذي يدعّ اليتيم ولا يحضّ على طعام المسكين، وهو كلّ من يستأثر ويمنع المعونة.

ثالثاً: غياب النظام العادل

كان التفرّق وحميّة الجاهليّة من أبرز سمات المجتمع في أمّ القرى وما حولها، حتى بات الحفاظ على نظام العلاقات الأخويّة الجديد من المهمّات الصعبة جدًّا، وقد كان (ص) بالمرصاد لأي عودة للتفرق والتشتت والعدوان والآيات تتنزل للمحافظة على روح الأخوة كما في قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (آل عمران:١٠٣).

فالمعروف أن مكّة وما حولها كانت دولة تجّار ولم تكن واقعة تحت سلطة عظمى مسيطرة في تلك الفترة كالفرس والروم والأحباش، وبذلك لم تكن خاضعة لنظام حكم ذات مرجعية واحدة تفصل بين المختلفين ويعطي صاحب الحقّ حقّه أو شيء من ذلك، وكان هناك بقية أعراف اجتماعية ممّا تركها الأولون من الحنفاء، وكان لدار الندوة دورٌ مهمٌّ في تنظيم وتيسير بعض الشئون المتعلّقة بنظم البيت والحج، وبالتجارة، وبالعلاقات بين القبائل من العهود والأحلاف وغيرها، ولكن كل هذا لم يكن كافياً لإرجاع الحقوق والردع عن الظلم والاعتداء، فقد روي أن إعرابيّاً دخل مع بداية الدعوة مكة والنبيّ(ص) يؤذى، فأخذ ينادي في الناس: من يرجع لي مالي من أبي جهل؟ فقالوا ساخرين:

> وكم من أبناء العزّ أصبحوا أجراء أو عبيدًا في أيدي الجشعين، وكم من حرائر بنات دُسّت تحت التراب لئلا ينتزعهنّ أربابُ الديون من أبيهم المدان المعدم، فيُصيّرنّ سلعاً وبِغاءً للقوافل والتجّار

لا يقدر أحدٌ إلّا هذا! وكان النبي (ص) حينها يصلي في الحرم، فلما فرغ أتاه الإعرابيّ وقال له: يزعم هؤلاء أنك تقدر أن تأتيني بمالي ، قال (ص): إذن قم معي، فطرق الباب على أبي جهل وهو غاضب، فخرج إليه وسأله: أأخذت من الرجل مالّا؟ قال أبو جهل: نعم، قال: ردّ للرجل ماله، ففزع أبو جهل فدخل ثم عاد ومعه المال فأرجعه. إذن، بهذه القيم الزائفة الجاهلية صار مآل الأمّة إلى الشقاق وتحول المجتمع إلى بيئة خصبة لزرع الفتن، وترك العنان أمام الهوى لا يوقفه إلّا قوّة النظام، فقد شارفت شفا حفرة من النار. ففي ظلّ اللانظام، يقوم الظلم على قدم وساق، وتهتك الأعراض وتسفك الدماء، وهذا ما كان، وبرزت ثارات أُضيفت مع الدعوة الجديدة ومع وقوع المعارك وسقوط القتلى من الطرفين.

ولما أسس الرسول (ص) دولة المدينة، أسّس لها نظاماً لدفع المظالم وإرجاع الحقوق وإقامة القسط والعدل وبسطه على الجميع، وحين الفتح أعلن نهاية عهد الظلم والثأر والثأر المضاد قائلاً: (وإنّ دماء الجاهلية موضوعة، وإنّ أوّل دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. ألا إنّ كلّ مأثرةٍ كانت في الجاهلية، ودمٍ، تحت قدمي هاتين ...). حيث أبطل (ص) المطالبة بدم عامر بن ربيعة وهو ابن عمه، والذي قتلته في الجاهلية بنو هذيل ليكون بذلك تأسيسًا جديدا لا محاباة فيها لأحد حريّاً بأن تتأسّى به الدول بعد تبدّل أنظمتها البائدة، لتزرع في النفوس السلام.

رابعا: نسب الأمة وتاريخها

ثبّت اليهود بمدوّنتهم التوراتيّة النسب العالي لأنفسهم، ونفي الآخرين (الأغيار) فأفنوا الجميع بخرافة عالميّة طوفان نوح! وأصّلوا للأعراق دونهم في المنازل الدنيا بتلفيقهم فرية على نوح: (ملعون "كنعان"، عبد العبيد يكون لإخوته، وقال : مبارك الرب إله "سام"، وليكن كنعان عبداً لهم ..) (تكوين : إصحاح ٩)، وقام الكهنة بنسبة القبائح إلى أنبياء الله لتسويغ امتهانهم المفسد بمثلّث (المال- السلطة – الجنس)، فلم يُنزّهوهم (ع) عن شرب الخمور ولا ارتكاب الزنا ولا جشع تكديس الأموال وبسط السلطان بالقهر، ولا اتّخاذ القينات والسرائر والعبيد، ولا غزو القبائل وإبادتها واسترقاقها وسرقة دوابّها، وعندما وجدوا العرب تتفاخر بمآثر إبراهيم (ع) سرقوا هذا الشرف واحتكروه لأنفسهم، ونزل الكتاب مبيّنا: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (آل عمران:٦٧) و(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا) (آل عمران:٦٨).

ولتصحيح هذا التاريخ وتعديل هذا التحريف ذكر الرسول (ص) جميع الأنبياء كأخوة له، فيقول أخي يونس، وأخي هود وغيرهم، وجاء القرآن ليفضح اليهود بأنهم قتلة الأنبياء مبايناً بين أفعالهم المشينة وبين طهارة هؤلاء الصالحين، وكيف أنهم جمعوا إليهم خبائث المجرمين من أعداء هذه الشجرة الطيّبة. ومن جهة ثانية نسب القرآن الكريم الأمة إلى إبراهيم الخليل قائلاً: (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ) فالتوحيد سمة الأمة على طول الخط، وما الشرك إلا درن طارئ عصف بالأمّة بقوّة الطاغوت وانهيار المناعة والحاجة، فأمّة إبراهيم (ع) ليست أمّة اليهود، وليست أمّة قوميّة، بل ولا دينيّة مستأثرة، بل هي أمّة أتباع الأنبياء جميعاً، هي أمّة الناس التي فطرها الله على توحيده لو كُشف عنهم وتحرّروا من طغيان الكُهّان صُنّاع الدين وكُتّاب الشريعة بأيديهم ويقولون هو من عند الله، وتحرّروا أيضاً من طاغوت التجّار الساسة، وقبال العقليّة القبليّة واليهوديّة التي تُعلي بنفسها فوق الشعوب وتميّز عنصرها ومعتنقها، أخبر القرآن أنّ (الناس أمّة واحدة)، وليس لأحد مع الله قرابة ولا نسبٌ، فلا نبيّ قوم هو ابنه ولا الملائكة المعبودون افتراءاً هم بناتُه، وليس اليهود أبناء الله وأحبّاءه، كما تريد (الساميّة الحديثة المخترعة أن تُؤصّلة بسطوة منظمة الأمم)، فالله سبحانه للجميع (ربّ العالمين) و(إله العالمين) و(ربّ الناس، ملك الناس، إله الناس)، وليس إله اليهود فحسب، ولا ربّ العرب دون العجم، بل (كلّ الناس لآدم) و(لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود) وكلّ الناس (من ذكرٍ وأنثى) وغايتهم (لتعارفوا) لا ليتمايزوا ويتفاضلوا ويتصارعوا.

فهذه أربعة محاور اعوجاج من كثيرٍ غيرها، أقامها النبيّ الخاتم العظيم، ليصلح ما فسد من الدين ومن اجتماع الناس ومن عقولهم، وليرسي قواعد الصلاح، ويقيم بنيان الأمة، ليتّسع فيها بلوغ الإنسان إلى كماله المأمول.

وحينما نراجع حال الأمة اليوم، نجدها قريباً ممّا كانت عليه قبل بعثة نبيّها (ص) في تفرّقها وتشتّتها وضعفها، ودخول التحريف والتزوير إلى جميع مفاصل تاريخها، وصناعة الجهل وتفشيه في أوساطها، وسيطرة نُظم الصهيونيّة الحديثة والأعداء والمستبدين عليها وعلى شريانات حياتها، وانطفاء جذوة القيم الإنسانية الأصيلة بسبب البرامج المضادّة التي تحارب القيم من منافذ السوق والثقافة والإعلام.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) (الأحزاب:٢١)

خاطرة:

أين ذهب الأنصار؟!

بقلم: أ. عيسى الشارقي

يتساءل المرء وهو يقرأ تاريخ المسلمين بعد النبيّ (ص)؛ يتساءل عن الأنصار، أين ذهبوا؟ وما كان دورهم في الشأن العام؟ وأين كانوا من مراكز القيادة؟

الأنصار كانوا من الفلاحين، الأكثر بساطة من المهاجرين الذين أكسبتهم التجارة ألواناً من الخبرات والمهارات، وفنون القيادة، والدهاء، أكثر مما تعلمه الأنصار في حياتهم، فقد كان الأنصار أهل أرياف، أقلّ تمدّناً وتحضّراً من أهل مكة، الذين هم أقرب مثالاً لسكان المدن، وكان الرسول (ص) يكن لهم ودّا خاصّا، وربما كانوا الأقرب إلى قلبه من جهة العاطفة، حيث ظلّ يذكر جميلهم عليه ويذكّرهم به إذا استحيوا أن يذكروه مكرّرين "بل المنة لله ورسوله"، "بلى لو شئتم لقلتم ولصدقتم، أتيتنا مكذَّبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فواسيناك"، حيث لم يجدوا ثمنا لهذا العرفان إلا الدموع، التي انهمرت حتى اخضلّت منها اللّحى.

وكان يتوجس عليهم خيفة أن يتنكّر لفضلهم من بعده، حيث كانوا هم عماد الدعوة والدولة، ولكنهم كلما ازداد الداخلون في الدين من قريش وغيرها كلّما تضاءلت نسبتهم، فكانت هواجسه هذه تتبدّى على لسانه عند أواخر أيامه، وهو العارف بدوران الدنيا، فقد روي أنه قال: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ النَّاسَ يَكْثُرُونَ، وَيَقِلُّ الْأَنْصَارُ، حَتَّى يَكُونُوا فِي النَّاسِ بِمَنْزِلَةِ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، فَمَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ شَيْئًا يَضُرُّ فِيهِ قَوْمًا، وَيَنْفَعُ فِيهِ آخَرِينَ، فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ). وكأنّ رواة الحديث المكيين أرادوا به تعزية الأنصار على ذهاب الدولة والريح، فاستوصوا بهم خيرا كما يُستوصى بالضعفاء!

وكذلك كان تعلق الأنصار بالرسول (ص) عظيماً، وكانوا يتوجسون قلقا كلّما اقتربت رايات الإسلام من الانتصار على قريش؛ أن يعود الرسول مكياً، ويترك "طيبة" تعود "يثرب" كما كانت من قبل، ولهذا تراهم يتحسّسون من أي مشاهد تدل على عودة الحبيب إلى أهله، أو غلبة أهله على قلبه، فكلما رأوا بادرات تشير على هواجسهم أسرّوا في أنفسهم، أو انفلت على لسانهم "قد وجد محمّدٌ قومه"!

وفي حُنين لما رأوه يغدق الغنائم على مسلمة الفتح من المؤلفة قلوبهم، سبقتهم هواجسهم للحديث حول عودة الحبيب إلى أهله، وأنه قد وجد قومه، واعتصرهم ألمٌ لم يتمالكوه، أنهم قد يعودون إلى المدينة بدونه، وأنه قد يعود مقيماً في مكة حرم الله، وحرم أهله، وقد أحسّ النبي (ص) بهاجسهم هذا فكاشفهم في الحظيرة.

"ألا ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله؟! فو الذي نفسُ محمدٍ بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، اللّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار"، نعم فقد كان يعلم أنه دفعَ عنهم الغنائم، لكنّهم لو علموا أنّ توزيع الغنائم على غيرهم لم يكن عن بُعدٍ منهم وتقرب لغيرهم لما أهمتهم الغنائم ولو كانت بسعة البحر.

عاد الأنصار بمحمّدٍ (ص)، ولم يكن لهم غُنم دنيويّ جرّاء نصرتهم للإسلام سواه، وكان غُنماً عظيماً، خَلُد معهم على مرّ الزمان، لم يتركهم حتى تركوه، فغلبتهم الناس عليه. فقد ذهبت قريش بالخلافة، واحتكر المهاجرون ومسلمة الفتح المناصب القيادية في الجيوش والولايات، حتى لا يكاد التاريخ يذكر سواهم، ومع أنّ الأنصار كانوا هم الثقل الأكبر قبل الفتح، إلّا أنّهم بدأوا يقلّون من بعده، ليعودوا مع دخول أفواج الناس في الدين إلى قلة، وكان هذا يكسر قلب محمد (ص)، وظهر على لسانه حيناً ما.

ظلت الأنصار في عمومها عنصراً فاعلاً في الحروب والفتوح، ولكنها أزيحت للصفوف الخلفية، ولهذا فأسماؤهم لا ترد في التاريخ بعد الرسول إلّا كشخصيات ثانوية بعد شخصيات المهاجرين ومسلمة الفتح من قريش، وظل موقفهم يوم السقيفة، ومحاولة سعد بن عبادة استلام الزعامة دون قريش، ماثلاً دائماً في أعين القرشيين المهاجرين وغير المهاجرين، وما أن آل الأمر إلى بني أمية، حتى تجرّأت قريش على تعيير الأنصار بأنّهم أبناء الفلاحين، فخاطبهم معاوية مستهزئا: "أين ذهبت نواضحكم؟" ، فأجابوه معتزين: أفنيناها يوم بدر!، ولقد رووا أنّ النبي (ص) أنبأهم أنكم معشر الأنصار سترون أثرة من بعدي!، وزعموا أنه أوصاهم بالذلة والمسكنة للمستأثرين وأسموها صبرًا!

لقد امتلكت قريش السياسة والسلطان، فكتبته باسمها، ولا غرو فإنما يكتب التاريخَ من امتلك السلطان.

ظلت الأنصار في عمومها عنصراً فاعلاً في الحروب والفتوح، ولكنها أزيحت للصفوف الخلفية، ولهذا فأسماؤهم لا ترد في التاريخ بعد الرسول إلّا كشخصيات ثانوية بعد شخصيات المهاجرين.

محمد بين نوافذ العقل ونوافث الوحي

بقلم: الشيخ عباس النجار

إنّ ما يشهده إنسان اليوم من تطور مذهل للعلوم وتسخير لطاقات التكنولوجيا الهائلة وترويض لبعض مظاهر الطبيعة القاسية، ما هو إلا نتيجة اكتشاف ما كان غائباً عنه بالأمس من قوانين هذا العالم المادي وخصائص مواده وعلاقاتها ببعضها، ونحن اليوم نلمس آثارها العظيمة لمس اليد، أقصد المفيدة منها في شتى مجالات الحياة لا المدمرة كالتي وُظفت في التسلح وإزهاق الأرواح ظلماً وعدواناً! فكيف إذا ما طالت أيدينا عالم الروح وتنفّسنا عبيره حتماً لا مجال للمقارنة، فإنّ للمادة حداً لا تتجاوزه أما طاقة الروح فلا حدّ لها.

إنّ الإيمان بالله.. بالقدرة المطلقة الخالقة المبدعة هي الخطوة الأولى على طريق الاتصال بذلك العالم، لأنّ الإنسان يملك نفحةً منه صار بها جديراً بخلافة الله سبحانه في أرضه، جعلت منه (إنساناً ذا أذهانٍ يجيلها، وفِكَرٍ يتصرف بها، ومعرفةٍ يفرّق بها بين الحق والباطل) ، جعلت لديه قابلية الترقي حتى يقول للشيء كنْ فيكون، ونماذجُ ذلك مبثوثة عبر التاريخ هم الأنبياء والرسل منذ آدم الرسول وحتى آخرهم محمد(ص). ولم يكن هؤلاء بدعاً من الناس في حاجاتهم البشرية، كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويمارسون أمور حياتهم كسائر البشر، وليس اعتباطاً أن بعث الله إلى الأقوام رجالاً منهم يعيشون بينهم ويعرفون نسبهم وليس من كوكب آخر ليكونوا قدوات حيّة يمكن التأسي بها ولئلا تكون على الله حجة بعد الرسل. فحياة الرسول (ص) لا تختلف عن حياة سائر الخلق من حيث أنه بشر، جرى عليه ما يجري عليهم من سراء وضراء ونعمة ورخاء، وقد ذاق طعم اليتم وليداً، وعاش معاناة طلب الرزق وهو صغير فاشتغل بالرعي وهو ابن ثمان سنين ثم امتهن التجارة وهو ابن خمس عشرة سنة! وراكم من المعارف وخبرات الحياة ما أهلته للصدع بأمر الرسالة وهو في الأربعين حين منّ الله عليه بالوصال فوجد ضالته (وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى) ، وانكشف له من أسرار الحقيقة ما تميّز به عن سائر الخلق، فهو بشرٌ مثلهم ولكنه الآن يُوحى إليه (قُلْ إِنَمَّا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ...) .

التأييد الغيبي

ولقد قيل للنبي(ص) في بدايات الوحي: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) ، فأعباء الرسالة الخاتمة لا ينهض بها إلا رجل كمحمد(ص) في أهليته وخبرته ورجاحة عقله، وكان الوحي يأتيه بالعلوم، والحقائق التاريخية، والتوجيهات الأخلاقية، والممارسات العبادية، وكان عليه واجب إبلاغها وإيصالها مهما كلّفه الثمن، أما وسائل تبليغها وتحرّي أمثلها وأفضلها لتحقيق الهدف فهي من صناعته وصناعة أصحابه، ونادراً ما كان يأتيه الوحي قبل اتّخاذ خطوة ما متدخّلاً ليُلغي أمراً عزم عليه النبيّ (ص) وقايةً للرسالة أو تنزيهاً لها أو حفظاً لحياة صاحبها ريثما تتمّ الرسالة الخاتمة، أي التدخّل الذي يُغطّي جوانب لا يمكن أن يتوصّل لها العقل، فهذا المقدار من التسديد الذي حظي به النبي(ص) من الغيب كان يأتي بعد استنفاد كلّ أوجه التسديد المتاحة والممكنة ضمن ظروف الصراع القائم بين دعوة الحق الجديدة ومناوئيها القساة من استقراء الواقع، وجمع المعطيات، والاستعانة بالتجارب السابقة، ومشاورة عقول الرجال، فقد كان التخطيط المنهجي الواعي حاضراً وفاعلاً في نجاح الدعوة وتجاوز كل المنعطفات الخطيرة التي واجهتها دون الاعتماد على الغيب ابتداءً، وإنّما يأتي التسديد والتأييد بعد إفراغ كامل الجهد العقلي والنفسي والبدني (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) .

> **راكم الرسول منذ الصغر من المعارف وخبرات الحياة ما أهلته للصدع بأمر الرسالة وهو في الأربعين حين منّ الله عليه بالوصال فوجد ضالته (وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى) ، وانكشف له من أسرار الحقيقة ما تميّز به عن سائر الخلق، فهو بشرٌ مثل سائر الخلق ولكنه الآن يُوحى إليه.**

إنّ الأخذ بالأسباب وإعمال العقل كان هو القاعدة والأساس في التعاطي مع ما تفرضه ظروف المواجهة، فقرار الهجرة إلى الحبشة لم يكن بوحي من السماء وإنّما جاء نتيجة قراءة صائبة للواقع والمحيط (اذهبوا إلى الحبشة فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد).وحتى فيما يتعلق بشأن الهجرة لقد كان ثمة إذن للرسول والمسلمين بالخروج من مكة ولكن إلى أين؟ أإلى الحبشة أيضاً واللحاق بالسابقين منهم؟ أمْ إلى المدينة أمْ غيرها؟ فتحديد الجهة والتوقيت كان من مسئولية القيادة الميدانية على الأرض المتمثلة في الرسول الأعظم(ص)، وحيث أنّ عنصر المكان كان سيحدد مصير الدعوة الوليدة لهذا استُبعدت الخيارات الأخرى المطروحة –عدا المدينة– لعدم مناسبتها، ومنها الحبشة نفسها لكونها بعيدة التأثير على مكة فضلاً عمّا قد يُثار من إشكالية الاستقواء بالغريب الأجنبي على قومه وأهله لا سيّما وأنّ الذاكرة القريبة تختزن غزو الحبشة الغاشم لبلاد العرب بوقعة

الفيل.

وكما الإذن بالهجرة في المرحلة المكية، جاء الأذنُ -وليس الأمر- بالقتال في المدينة (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) ، ليعطيَ مساحةً للتفكير والتخطيط والإبداع والرصد والتيقظ والمبادرة والخدعة في الحرب، فلم تكن خطط القتال تنزل معلّبة من السماء، وإنما هي متروكة للتطورات في الميدان وما كانت فكرة حفر الخندق التي تفتق عنها عقل سلمان(رض) في معركة الأحزاب إلا وليدة إبداع اللحظة العصيبة إذْ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وكثيراً ما سُئل النبي(ص) عن موقعٍ اتخذه للحرب: أهذا منزل أنزلك الله إياه أم هي الحرب والخدعة؟ فيقول: إنما هي الحرب والخدعة، فيُقترح عليه تغيير المكان فيستجيب متى اقتنع. لقد فهم الرسول(ص) وأصحابُه أنّ معيّة الله سبحانه للمتقين والمؤمنين والصابرين والمحسنين لا تعني نيابته عنهم في أداء مهامهم والقيام بواجباتهم وتحمّل مسئولياتهم كما يفهمه كثيرٌ من مسلمي عصرنا الحاضر حين يكتفون بالدعاء وطلب النصر من السماء وأن يكفيهم الله شر عدوهم وأن ينصر الإسلام والمسلمين ويخذل الكفار والمنافقين دون أن يساهموا بجهد موجّه ومدروس في التأسيس لذلك التغيير! كبني إسرائيل حين طالبهم موسى(ع) بتحرير أرض الله المقدسة فقالوا: (إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) ، فمعيّة الله لا تكون إلا بتحقّق صفة الإيمان والتقوى والصبر والإحسان التي تعني اختصاراً الأخذ بأسباب النصر، فذلك هو مقتضى رجاء المؤمنين (فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ) فإذا علم الله منا صدق العزم سدّد خطواتنا وأنزل علينا النصر، وما كان رسول الله (ص) يوماً متكلاً على الغيب فيما يستطيع إنجازه، بل كان مبادراً باتخاذ ما يراه مناسباً معتمداً على عقله ومشورة عقول أصحابه ومتوكلاً بعدها على الله سبحانه، وربما جاءه الوحي بعد ذلك معاتباً وموجّهاً ومصحّحاً (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) و(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) ، وغيرها كثير تنبئ عن تحرّك ذاتي واجتهاد ورغبة منه في

قرار الهجرة إلى الحبشة لم يكن بوحي من السماء وإنّما جاء نتيجة قراءة صائبة للواقع والمحيط (اذهبوا إلى الحبشة فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد). لقد كان ثمة إذن للرسول والمسلمين بالخروج من مكة ولكن تحديد الجهة والتوقيت كان من مسئولية الرسول الأعظم(ص).

دفع المسيرة نحو بلوغ الأهداف.

التخطيط للنصر

كانت غزوة أُحد والأحداث التي تلتها مباشرة من أبرز نماذج التخطيط للحرب والمواجهة، حيث كان الخروج لهذه الغزوة مرتبكاً منذ البداية بسبب كيد المنافقين، وكان الخطر يتهدّد المسلمين من أكثر من جهة، فسفيان بن خالد الهذلي وهو من أشدّ المعادين للرسول(ص) يجمع الجموع لغزو المدينة، وقريش أعدّت العدّة لمحاربة النبي والانتقام لهزيمتها في بدر، وقد خصّصت أموال القافلة التي أفْلَتَ بها أبو سفيان من أيدي المسلمين لهذه الحرب وقالوا: لا تنفقوا منه شيئاً إلّا في حرب محمد، فكان لابدّ من التصدّي بقوّة لكلّ هذه المخاطر.

كانت خطة الرسول(ص) للحرب تقضي بأن يتحصّنوا في المدينة ويقاتلوا المشركين إذا دخلوها فهم أعرف بأزقّتها منهم، ولكنّ بعضاً من الأنصار وخصوصا الشباب المتحمس منهم فضّلوا الخروج إليهم، وقال قائلهم: "هي إحدى الحسنيين: الظفر أو الشهادة؛ والله لا تطمع العرب في أن تدخل علينا منازلنا، ولا يظنّ ظانّ أنا هبنا عدوّنا فيجترىء علينا" فنزل الرسول عند رغبتهم.

المنافقون فضّلوا عدم الخروج، لا استجابة لمقالة الرسول(ص) وإنما لحاجة في نفوسهم ربما استبطنت غدراً وخيانة، وهذا ما جعل الرسول(ص) يصرّ على الخروج تفويتاً للفرصة عليهم رغم تراجع الأنصار عن رأيهم بعد مراجعات جرت بينهم خوفاً منهم أن يكون الرأي بالتحصّن في المدينة بأمر السماء، ولكن الرسول(ص) أراد إثبات حقّهم في إبداء الرأي والأخذ به، السنّة التي تنكّب عنها أكثر علماء الأمة اليوم وقادتها حين صادورا عقول الناس وأماتوا فيهم الإحساس بالمسئولية فأصبحوا إمّعات، فلا هم هدَوْهم الطريق إلى الحياة العزيزة الكريمة ولا تركوا لهم فرصة التغيير إلى الأفضل! بينما كان دأب الرسول(ص) مشاورة أصحابه وإثارة دفائن عقولهم وإمضاء الراجح من آرائهم وإن خالف رأيه، فحسم أمر الخروج للقتال قائلاً: "ما كان لنبيّ إذا لبس لامة حربه أن يضعها حتى يقاتل".

إنّ أخطر ما تُبتلى به الأمة حين مواجهتها عدوّها الخارجي المحدّد والمعروف أن ينبري نفرٌ من الداخل يعمل على تثبيط همة المتصدّين والمدافعين عن حقّهم في العيش الحرّ والكريم، وتخوير عزيمتهم على لقاء العدوّ بتهوينه أو تهويله خوفاً على مصالحهم الشخصية أن تضيع، وقد كان رسول الله(ص) مدركاً خطر هؤلاء فأعلن ما يشبه حالة الطوارئ بمصطلح اليوم، وطلب من وجوه الأوس والخزرج التسلّح وجعل سعد بن معاذ، وأسيد بن خضير، وسعد بن عبادة حرّاسا على المدينة، وباتوا تلك الليلة في المسجد بباب رسول الله(ص) حتى الصباح، جعلهم قريبين منه ليتعرّفوا على أيّ غريب دخل المدينة خشية تسرّب أسرارهم إلى المشركين لاسيما العسكرية منها، ولقد استنكر المنافقون هذه الإجراءات وأبدوا امتعاضهم منها غير مصدّقين للأخبار الواردة عن قريش تهويناً بالخطر المحدق!

خرج المسلمون لمجابهة المشركين وسار معهم كبيرُ المنافقين عبدالله بن أبيّ وأصحابه، وفي الطريق بدأ المنافقون بالهرج والمرج وقرروا الرجوع بزعم أنهم لم يروا أثراً لقريش، وقالوا: (لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ) ،

الرسول (ص) أراد إثبات حقّ إبداء الرأي والأخذ به، السنّة التي تنكّب عنها أكثر علماء الأمة اليوم وقادتها حين صادروا عقول الناس وأماتوا فيهم الإحساس بالمسئولية فأصبحوا إمّعات، فلا هم هدَوْهم الطريق إلى الحياة العزيزة الكريمة ولا تركوا لهم فرصة التغيير إلى الأفضل!

ثم قال رأسهم:

وما ندري علامَ نقتل أنفسنا! أثّرَ خذلان المنافقين وانسحاب عبدالله بن أبيّ بثُلث الجيش في عزيمة طائفتين من المسلمين هم بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وقد همّوا بالانصراف معه، وكانوا يمثّلون جناحي العسكر! إنّ كلّ هذه المتغيرات الطارئة لم تؤثّر سلباً في عزيمة النبي(ص) وتخطيطه للنصر، فاستطاع بفضل حنكته القيادية وحسن تدبيره أن يتفادى النقص ويسدّ الثغرات، فقام بتوزيع الأدوار حيث أعطى لكلّ جمع مهمّة محدّدة لإظهار

لقد فهم الرسول(ص) وأصحابُه أنّ معيّة الله سبحانه للمتقين والمؤمنين والصابرين والمحسنين لا تعني نيابته عنهم في أداء مهامهم والقيام بواجباتهم وتحمّل مسئولياتهم كما يفهمه كثيرٌ من مسلمي عصرنا الحاضر حين يكتفون بالدعاء وطلب النصر من السماء وأن يكفيهم الله شر عدوهم وأن ينصر الإسلام والمسلمين ويخذل الكفار والمنافقين دون أن يساهموا بجهد موجّه ومدروس في التأسيس لذلك التغيير!

البسالة وإرهاب العدو، واختار خمسين ممن يجيدون الرماية وجعل عليهم عبدالله بن جبير ليحموا ظهور المسلمين من التفاف العدو حولهم، وكلّف حمزة بمهمة شقّ الصفوف والوصول إلى قائدهم أبي سفيان، وكانت مهمّة عليّ القضاء على حملة اللواء، وهكذا تم اقتناص مواطن القوة لدى المشركين واستهدافها برجال أشداء، وجرت المعركة كما خطّط لها الرسول(ص) وكانت الغلبة للمسلمين على المشركين بسبب الانضباط التام والالتزام بالمواقع والمهام حسب الخطة العسكرية المرسومة، وكادت المعركة أن تنتهي بهزيمة المشركين هزيمة نكراء لولا أن تخلّى الرماة عن مواقعهم على الجبل طمعاً

في الغنيمة! فكشفوا ظهور المسلمين للعدوّ رغم تحذير الرسول(ص) لهم! مما قلب الموازيين لصالح قريش، وقيل للرسول(ص) بعد ذلك: (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) فسنّة الصراع لا تحابي مؤمناً ولا كافراً، ودارت الدائرة على المسلمين ووقع القتل فيهم بغتة وهم يطاردون فلول المشركين! وأُصيب رسول الله(ص) في جبينه الشريف وشُجّ رأسه وكُسرت رباعيته (أحد أسنانه)، وعلا صوت المشركين: قُتل محمد، قُتل محمد، حرباً نفسية لبثّ الضعف في النفوس وشق صف المسلمين المذهولين. وما انتهت المعركة إلا بمقتل سبعين من المسلمين بينهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، فما أن سمع المنافقون الأخبار حتى تطايرت الإشاعات والأقاويل المغرضة بهدف التشكيك في النبوة، كيف بنبيّ يُهزم ويُثخن بالجراح ويسقط في كمين وقالوا: (لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا).

من الوهن إلى صناعة الصمود

هنا تبرز قدرة القيادة وحكمتها في استيعاب الخطط المعادية وسرعة تطوير ردّ الفعل لاحتواء الموقف، وتوجيه الاهتمام والطاقات وتوظيفها في المعركة الرئيسية مع العدوّ الحقيقيّ دون بعثرتها في نزاعات ثانوية، وكان لابدّ من استطلاع حال العدوّ واستشفاف نيّتهم فهم لا يزالون على مقربة من المدينة، فأمر النبي(ص) علياً(ع) أن يخرج في آثار القوم فينظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، (فإن كانوا قد جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنّهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة) تحليل ينمّ عن معرفة وإحاطة بالأوضاع، فركوب الإبل يعني العزم على الرحيل إلى مكة حيث المسافة الطويلة، أما ركوب الخيل فيعني أنّ وجهتهم قريبة وحسب المعطيات لابد أن تكون الإغارة على المدينة، ثم أردف بعزيمة لا تعرف اللين: (والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها ثم لأناجزنّهم). فقد أغرى قريشا ما حقّقته من نصر بالتفكير في العودة ثانية للقضاء على المسلمين، وباشروا حرباً نفسية بالتهديد بالرجوع لاستئصالهم، فمعنويّات المسلمين منهارة وقوتهم مكسورة، وأقاويل المنافقين واليهود بالإضافة إلى المشركين تنفث الكثير من الإشاعات والأباطيل المضلّلة، حتماً سيشجع هذا الوضع المتربّصين أمثال سفيان بن خالد الهذلي على التحرّك في أيّ ساعة!

لم يكن الرسول(ص) ينتظر تسديد الوحي له في هذه الظروف الصعبة، بل بادر كعادته بوضع خطّة باشرها والمسلمون دون إبطاء رغم الجراح والألم، فأذن مؤذّن الرسول(ص) في الناس بطلب العدوّ وأن (لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس) أي إلّا الذين قاتلوا فقط، مرهباً للعدوّ، ومبلّغهم رسالة أنه خرج في طلبهم، لئلا يظنّوا به وهناً عن منازلتهم، ومن جهة أخرى يُخرس بها أفواه المنافقين والمتربّصين. وجعل من كلمة (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) شعاراً لهذه الحملة، لا كلمة عجز كما يردّدها أكثر المسلمين اليوم! خرج النبي وأصحابه في طلب العدوّ حاملين الجرحى معهم! حتى انتهى إلى جبل يسمى حمراء الأسد، وهو من المدينة على عشرة أميال فأمر أصحابه في الليل بأن يوقدوا حولهم نيراناً كثيرة، فأوقدوا خمسمائة نار كانت تُرى من بعيد، لبثّ الرعب في النفوس.

وكان أول ما ابتدأ به الحرب النفسية، حين بعث(ص) معبد ابن أبي عبادة وهو مسلم قد أمره أن يكتم إسلامه! –استغلالاً لفرصة متاحة– إلى أبي سفيان ليطلعه على ما عزم عليه المسلمون، ويهوّل عليه حرقتهم في طلبه! فلما وصل "معبد" الرويحاء، حيث يستريح جيش المشركين، سأل عن أبي سفيان، فلما أتاه قال له: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أر مثله قط، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، وفيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط. فوقع ذلك منه موقعاً أفزعه فقال أبو سفيان يحدّث قومه ويستعجلهم بالرحيل: لا محمّدا قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، شرّ ما صنعتم!

أقام رسول الله(ص) وأصحابه بحمراء الأسد ثلاثة أيام ثم رجعوا إلى المدينة وهم أكثر هيبةً وعزة، وفي طريق العودة لم ينس(ص) معالجة تهديد سفيان بن خالد الهذلي، فلم يكتف بالدعاء عليه والطلب من الله سبحانه أن يكفيه أمره كما نفعل نحن حين العجز، بل بعث إليه عبد الله ابن أنيس ليقتله وسط قومه وجمعه الذي جمعه، وقد فعل رغم خطورة المغامرة، فكُفي المؤمنون وكُفي الناس بقتله إسالة الكثير من الدماء.

فليت الأمة الإسلامية اليوم وهي تعيش مأزقها الحضاري تعلم أنّه لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها، أي بمعرفة معنى حسن التوكّل على الله، أنّه بتحرّر عقلها من الخرافة والأماني والجمود والتقليد والاتّكال لتستخدم عقولها المتحرّرة متكاتفة متفتّقة، وبتلك التضحيات الكبيرة والروح الإبداعية المبادرة، وبالتخطيط للنصر والإصرار عليه، وبالصدق في مواطن الصبر، وبتلك القيم الإنسانية والأخلاق السامية، وبالاتحاد على الغايات وعدم الفرقة، وبمعرفة عدوّها الحقيقي عدوّ الحقوق والسلام، وبالتمكن من ناصية العلم والعمل ونبذ الجهل والكسل، وبحسن الظن في التأييد الإلهي ليستوفوا شروطه، حينئذ تكون صلاتها صلةً حقيقية بالقوة المطلقة، وجهادُها جهاداً أكبر لإصلاح دواخلها، وحجُّها رحيلاً إليه سبحانه، وصومُها كسراً لإرادة الشيطان في النفوس، لا بتلك الممارسات السطحية للمفاهيم والشعائر التي لا تخترقنا حيث جواهر القلوب فتصل بنا إلى معدن العظمة.

جمال .. من أول نظرة!

بقلم: أ. إبتهال الهاشمي

في العالم مشاهد للجمال والخير، ومشاهد أخرى مليئة بالقبح والشرّ، ولعلّ لحظة تأمّل في ذلك تستجلب إلى أذهاننا صوراً ومشاهد شتى نتّفق جميعاً على جمالها أو قبحها، فهناك جمال الطبيعة الخلابة، وهناك جمال الطير والحيوان، وهناك جمال الطفل البريء والمرأة الحسناء..

وكجمال الماديات والأشياء، هناك جمال المعاني والحقائق، فمبادئ الحقّ والخير وقيم العدل والمساواة والإحسان، تبدو في أبهى صورها عندما تنعكس على السلوك الإنساني فترقيه عن الهمجية البشرية وترفعه إلى مصاف الإنسانيين والمعصومين والملائكة، فسبحان ربي، كلّما اقتربت المعاني منه جلّ وعلا، كلّما زاد جمالها ونورها، وكلّما ارتقى الإنسان بروحه كلّما أصبح قادراً على تمييز الجمال الحقيقي من العابث المزيف..

وفي دروب الحياة ومسيرة التاريخ فإنّ كثيرين اهتدوا لدرب الحق، لأنّ جماله يعرف من أوّل نظرة، جمال يعرفه صاحب الفطرة السليمة التي لم تتلوث بدخان مصانع الأهواء والتفكير المقولب، جمال قد يعرفه طفل بريء أو شيخ بسيط، ولا يدركه عالم أمضى سنيّ عمره في الحفظ والدراسة!

ولكن هناك أيضا فئة قد تسى ما رأته في النظرة الأولى، وتتسرّب إليها المؤثّرات لتخلخل قواعد يقينياتها، وتبدأ تدور في نفوسها – لا عقولها – خيالات الشكّ وأوهام الباطل، فيستسلمون لها، وتغذيها مخيلتهم الخصبة، وإذا وجد خلان السوء والمحيط العفن الموبوء فهذه روافد جديدة لمياه آسنة تصب في نفس البقعة التي يرتع فيها الشيطان.. فيا للقبح..!

لحظات "الشكّ" عندما تستغرق بالمرء زمناً لا يضع حدّاً له باليقين، فإنها قد تتطاول لتكون "ريبةً" في النفس، التي تمتدّ لتضع هي حداً لإيمانه ويقينه، بل حتى حداً لحياته في الإيمان.

القرآن، كتاب الحكم.. يذكر هذه الفئة ويسميها ويحذر من عاقبتها بكلمات شديدة ودقيقة، فيقول سبحانه (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) (سورة الذاريات:١٠- ١٣)

وها هو القرآن أيضاً يثبت قصص أحد هؤلاء، الوليد بن المغيرة، وهو من سادات قريش وكبرائها، وقد سمع عن رسول الله (ص)، فأتاه يستمع إلى بعض آيات القرآن..

ها هو يستمع إليها بصوت رسول الله.. صوت الصادق الأمين كما يعرفه..

اقشعرّت أطرافُه واهتزّت مشاعره، فما يسمعه كلامٌ ليس من قول بشر، خطر بباله هل هو شعر؟ لا .. يستحيل ذلك! فالشعر صناعته وذائقته وثقافته، وهويُدرك جيداً أنّ هذه الآيات لا تخضع لقواعد الوزن والقوافي والخيال، أهي كهانة؟! لا يمكن.. فما محمد من زمرة الكهان ولا هذا القول سجع لا روح فيه..!

إنه بناء متماسك محكم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. ولكن..

عاد إلى قومه وهم ينتظرون رأيه، تعصف به الأفكار والظنون، طريق قد تقصره المسافات، وتطول به الصراعات.. ما أن رأوه حتى اجتمعوا يلفّهم الحقد والضغينة وتملأ عقولهم إشاعات وسبقيات سمعوها عن محمد (ص) حتى من عمّه أبي لهبٍ يؤكّد فيها دائماً أنّ ابن أخيه جنّ وفقد عقله..!

بادروه: ما تقول في الذي سمعت من محمد؟

توقف لبرهة واسترجع ما سمع، وقال: إنّ له لحلاوة .. وإنّ عليه لطلاوة .. وإنّ أعلاه لمثمر.. وإنّ أسفله لمغدق .. وإنّه ليعلو ولا يُعلى عليه..

سبحان الله، لكأنه قد ذاق كأساً من العسل أو رأى روضاً من رياض الفردوس. كيف لا.. لقد رأى الجمال بأمّ عينيه..

سألوه مرة أخرى بدهشة واستغراب: هل هو شاعر؟

قال: أنا أعلمكم بالشعر وما هو بقول شاعر، ولئن قلتم: إنّه شاعر، فضحتكم العرب!

قالوا: أهو قول كاهن، قال: ليس بقول كاهن.

ظلوا يجادلون ويسألون، لكن حتماً ليس من أجل معرفة الجواب..

عصفت به أفكاره مرة أخرى، وأخذ يقمع نداءات الضمير، قدّر وأعاد التفكير، فإذا به يفقد قدرته على التمييز، ويتماهى الجمال والقبح في إرادة سريرته، وأخيراً يضع حدا لتقديراته وشكوكه بخلاصة تستصغر كلّ العظمة التي رآها "إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ".. (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ) (سورة المدثر: ١٨-٢٥)

مات الوليد بن المغيرة كافراً ملعوناً، وتحدّثت الروايات عن مسيرة حياته بعد هذه المقولة، مسيرة من التخبّط والضلال ونفرة الناس منه، حتى قومه الذين عاد إليهم، ولكن المهول والعظيم هو كلمة الحق جلّ وعلا تتوعّده (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ)!

(سورة المدثر: ٢٦-٣٠)

لقد تقاذفته ظنونه وأفكاره، وقد كان بإمكانه في تلك اللحظة المصيرية، عندما سمع آيات الرحمن تتلى عليه، آيات تخرّ منها الجبال تصدّعاً وخشية وتهبط لها قلوب المؤمنين ذوي الفطرة السليمة، كان بإمكانه لحظة رؤية الجمال أن يختار طريقه بلا رجعة.. ولكنه قدّر..!

لقد كانت رجعة الوليد عن قوله سبباً لكفر قومه حتى أنّهم كانوا يجلسون للناس ويحدّثونهم عن النبيّ وجماعته، فلا يمرّ بهم أحدٌ إلّا حذّروه التأثّر والانقياد لهم.. ولا عجب أن يقنعوهم بأنّ لحظات "رؤية الجمال" – إن شعروا بها- فهي من مسّ السحر أو غيره..!

إنّ ما تلفت له الآيات الكريمة وتؤيده الأحداث، هو أنّ هؤلاء الخرّاصين، لا يعودون بعد استسلامهم للشكوك الباطلة كما كانوا، بل يعودون أقبح وأكثر شرّاً وبطراً " ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ " .. بل إن لحظات الانحدار تبدأ من ساعة قرّروا أن يتجاهلوا الحقّ الجميل، حتى يصل بهم تسافلهم وانحدارهم إلى درجة أن لا يكونوا نكرة في التاريخ وحسب، بل ربما أشراراً مجرمين..!

حتى إبليس الرجيم برهن عن مثال واضح في الوصول لعالم الجمال الرباني، ورجوعه عنه بإخفاقة مريعة لا تتناسب وحجم ما رآه وعلمه، فإبليس كان يتعبّد الله تعالى أمداً طويلاً، ويرتع في ملكوت المسبحين والعابدين حتى كانت لحظات تردّده ورفضه السجود للآدمي الإنسان الأوّل هي لحظة التراجع الأولى، والتي لم تنته بذلك فقط، بل توعّد بغواية بني آدم جميعاً بحسّ انتقامي حاقد، وهنا وصل إلى نقطة اللاعودة، فكان من المبلسين من رحمة الله إلى يوم الدين..

إنّ موقع الدولة الإسلامية الجديدة خطيرٌ وحسّاسٌ بالنسبة للدولتين فارس والروم، إذ أنّ العالم يومها -كالعالم اليوم- منقسمٌ في الثراء والصناعة والموادّ الأوّلية والمصنّعة بين قسميْن؛ شرقيّ تمثّله الهند والصين وبلاد الأرخبيلات الآسيوية، وغربيّ تمثّله بيزنطا وروما والبلاد التابعة لهما، وبين هاتين المنطقتين تقع المنطقة العربيّة الجرداء، الفقيرة في زراعتها وأمطارها، والغنيّة بموقعها الاستراتيجي الخطير.

حرية العقيدة والفتوح الإسلاميّة

قسم الدراسات والبحوث

يحلو للمسلمين أن يفهموا أن جيوش المسلمين خرجت للدعوة لدين الله الجديد، فأسقطت أعظم دولتين كانتا يومئذٍ، الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية، وغيرت عقائدها من الكفر إلى الإيمان، كما يحلو في مقابلهم للغربيين والمثقفين من الشرقيين بألوان الحداثة، أن يجادلوا الإسلام بأنه قد نشر عقيدته بالسيف.

وثبوت مقولة المدافعين أو المهاجمين كلاهما خطر على الوعي العام، فثمار مقولة الطرفين واحدة، وهي إثبات الاستبداد الديني، غير أن آثار منطق المدافعين عن الدين والمجتمع أشد خطرا، لأنها تصوغ الحاضر و تسهم في رسم طريق المستقبل، بينما تبقى تهمة الخصوم محاكمة للماضي، والماضي يمكن الاعتذار عنه وتغييره، ولكن الحاضر هو الحياة والمستقبل هو الأمل، ولقد أمضت هذه الأمة في صحبة الاستبداد جل عمرها إلا قليلا، حتى صار عندها هو الطبيعة، والآن وقد بدأت تتبصر ولو على أنوار غيرها، أن الطبيعة ليست كذلك، فمن الظلم أن نشرع الاستبداد لها عقيدة ونجاة وفوزا، لنقول لها إنما تسيدت العالم بالقهر وفرض الدين، فنُظلِم بهذا الديجور مستقبلها، ونشده "بكل مغار الفتل" بيذبل الاستبداد، وثاقا من بعد وثاق.

ولقد استمات كل فريق في الدفاع عن موقفه أو التبرير له، ولن يعدم أذكياء الطرفين وهم كُثر مبررات لتبييض السواد، أو تسويد البياض، ولقد حاول العديد من الإسلاميين، وهم يعيشون هذا العصر الذي بات فيه فرض العقائد مستهجناً على مستوى العالم، ومعارضاً لدعوات حقوق الإنسان ومواثيق الأمم المتحدة، حاولوا جاهدين أن يوفقوا بين الفتوح ونشر الإسلام مع حرية العقيدة بوجه أو بآخر، حتى باتت هذه القضية لكثرة ما قيل فيها تدور فيما قيل لا تأتي بجديد ، وكلما زادت فاعلية حركات الإسلاميين الحُمس، وهو اللفظ العربي القديم في التعبير عن التشدد الديني، زادت أمثال هذه الأطروحات عند المهاجمين والمدافعين على حد سواء، فهؤلاء الحمُس صورة لا تزال حية عما يُمكن أن يُفهم من قيام الإسلام على العنف، الأمر الذي يزيد من حاجة الإسلاميين للدفاع، وخصومهم للهجوم.

ولا نريد هنا أن ندافع عن المسلمين الحُمس، ولا أن نبرئ حركة الفتوح من شوائب الحكام، وطمع بعض الفاتحين وهم يرون الغنائم تزداد يوماً بعد يوم، فلم تتم الفتوح كلها على يد أبي بكر وعمر، بل تواصلت على عهد معاوية والأمويين وشتان ما بين الفريقين ديناً وأخلاقاً وصحبة، وما كانت جيوش الفتح كلها من الأصحاب وصالحي التابعين، بل كان فيهم من العرب حضراً وبدواً من حديثي الإسلام، وممن أسلم ولما يدخل الإيمان في قلبه، وممن لا يزال متشبعاً بمفاهيم الغزو العربيّة الجاهلية وثقافتها، وممن لا تزال الغنائم تشكل قسماً معتداً به من اهتماماته في الجهاد.

ولكننا نريد أن نقول أن كل هذا لم يكن هو المحرك الأساسي لحروب ما سمي بالفتوح الإسلامية، وإنما أمثال هؤلاء وجدوا أنفسهم في أمرٍ فمضوا فيه، يؤثرون في إيجاده ولكن لا يكونون طبيعة وجوده، تماماً كأي جندي في جيش حديث، يسهم في تحقيق النصر أو الهزيمة ربما بدوافع شخصية ولكن دون أن يكون له أثر يذكر في رسم الحرب وتوجيهها ورسم أهدفها، بل قد يقاتل في طريق الحق من لا يؤمن به، حدث هذا حتى في غزوات النبي (ص).

السؤال الذي نريد أن نطرحه إذا هل كانت حروب المسلمين في الفتوح في أصلها العريض والأساسي على الأقل حرباً هجومية أم دفاعية؟ فإن ثبت أنها حروب هجومية ابتدائية فهي حروب باطلة مخالفة لصريح آيات القرآن الكريم، الذي صرح بعدم جواز العدوان، وعدم جواز قتال الذين لا يقاتلوننا ولم يظاهروا علينا (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة:١٩٠) وكل آيات القتال الموهمة الأخرى مردودة لهذه الآية الحاكمة وأمثالها، وإن ثبت أنها حروب دفاعية، فإن نتائجها حتى لو كانت ذات صلة بتغيير المعتقدات ضغطا، فإنما صار ذلك كأحد الحلول لنتائج الحرب ومشاكلها، لا أنه كان هدفاً استراتيجياً للحرب.

فمثلاً إذا انهزم الأعداء نفسيا وتقهقروا ميدانيا ثم عُرض عليهم الإسلام ليتخلصوا به من احتمال الأسر أو الاسترقاق والسبي ومصادرة الأموال في حال الهزيمة الميدانية إن كانوا مقاتلين، أو من الجزية إن كانوا مدنيين، فإن هذا العرض يكون إنسانياً وفقاً لأعراف الحروب الدولية وقتذاك، والتي كانت تقضي باسترقاق الأسرى وأخذ البلاد والأموال غنائم للمنتصر، فمع هذه الأعراف الدولية يكون التخلي عن الاسترقاق والغنائم المدنية بمجرد إعلان الإسلام هو فتح باب إنساني على الأقل من جهة المنتصر، مما ينفي قيام الحرب لأجل الغنائم.

نعم قد يكون هذا غير منسجم مع طبيعة ما ينبغي أن يكون من انتقال الإنسان من عقيدة إلى أخرى بتغيير القناعات عبر الإرادة الحرة، ولكنه أمر قد فرضته حالة الحرب الخاصة، وكان خياراً بين شر اقتدر عليه المنتصر، وخير غير مكتمل الحسن.

ومتى كان الإنسان لا ينتقل لعقيدة إلا بعد التفكر والتدبر؟ فهاهي الناس كلها تتوارث دينها توارثا وهو عند الله والحكماء مذموم، ولعله – عرض الإسلام - أفضل مما تقوم به الإرساليات من عمليات التبشير بين الفقراء تحت إغراء الغذاء

والدواء، فكلاهما إغراء للمرء بتغيير العقيدة، ولكنه كان عند الفاتحين المسلمين أسلوباً طارئاً فرضته حالة الحرب وغياب القوانين الدولية الإنسانية فيها.

وعليه إن أثبتنا أن حروب المسلمين في ما عُرف بحروب الفتوح كانت دفاعية لا عدوانية، فإنه يسقط على الأقل وجود القصد في توظيف الحرب كأداة للدعوة، وإذا حدث أن دخل قوم في الدين كثمرة من ثمرات الحرب، إذا آثروا إتباع المنتصر والكون معه مع ما يحقق لهم ذلك من فوائد العرض المقدم لهم " له مالنا وعليه ما علينا"، وبّعد عنهم عواقبها الوخيمة من الاسترقاق ومصادرة الأموال، فإنه لا يكون إكراهاً مقصوداً من المسلمين بل حلول لمشاكل الحرب وعواقبها، وهو خيار كريم من منتصر

لم يعد أحد يهتم بالمبرّر القانونيّ والشرعيّ لحروب الفتوح في أصلها الذي قامت عليه، هل هي دفاعية أم عدوانية، ولولا تراكم الاتهامات الغربية الاستشراقيّة، لما أولى أحدٌ هذه الناحية اهتماماً.

مقتدر.

نقول ذلك لا لنثبت أن الإسلام لم ينتشر بالسيف فقط، ولكن لنثبت عدم عدوانيته، وإلا فإن دعوى انتشار الإسلام بالسيف هي دعوى مضللة أصلا، ذلك أن من عرف تاريخ منطقة الفتوح يعلم أنها في غالبيتها العظمى لم تكن وثنية، بل كانت مجوسية في مناطق فارس ونصرانية في مناطق الروم، ومعهم يهود وصابئة وفلول من المشركين، ومن المعلوم أن المسلمين جميعا وبنص القرآن الكريم يجيزون للمجوس واليهود والنصارى والصابئين البقاء على دينهم، فدعوى إسلامهم بالسيف أكذوبة ساعد على رواجها عدم التدقيق أولا، ورغبة أطراف متطرفة من المسلمين والنصارى أن يفهم الإسلام أنه كذلك ثانيا، كل له حاجته وغرضه ولكن الإسلام منه براء.

فلنعد الآن للإجابة على أصل السؤال، هل كانت حروب ما عُرف بالفتوح ابتدائية هجومية أم دفاعية؟

دعنا نقَرُّ أولاً بأننا حسبنا الأمر سيكون جلياً في كتب التراث، وأنها ستعنى ببيان هذه الناحية من أن المسلمين إنما غزوا الفرس والروم دفاعاً لا ابتداءً، ولكن وجدنا أنهم لم يروا فيه إشكالية تتطلب البيان، ولم يجدوا عندهم ما يبرر متابعته وبيانه ورصده وتبريره، وإلّا لوجدت فيه كتباً محبرة، على عادتهم في التكرار والنقل الذي لا يمل ولا يكل في ترديد المقالات حول مواضع الاختلاف ، فعدم عنايتهم ببيان أسباب الغزو وأنه كان دفاعياً أو ابتدائياً يدل على أنهم لم يروا في الابتداء غضاضة، ومن هنا تجد من يتحدث عن أن أسباب الغزو هي ثقة أبي بكر الصديق بالنصر بسبب بشائر النبي (ص) لهم بفتح فارس والروم ، وترى آخر يقول بأن السبب في التوجه لغزو الروم هو طلب الفضل والثواب، لأن من قُتل على أيدي أهل الكتاب له أجر شهيدين ، فكان اهتمامهم بمثل هذا أكبر من اهتمامهم بتأصيل شرعي لدوافع الحرب.

لقد كُتبت كتب التراث والأمة في قوة ومنعة، قد سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها، فكانت تستشعر القوة والهيمنة وتفتخر بهما، فلم يكن هناك باعث ثقافي ولا نفسي يحث العلماء على تبرير أسباب غزو فارس والروم، وكفى تقييماً لهذه الحروب أنها فتوح انتشر بها الإسلام في أصقاع الأرض، ثم إن الثقافة الدولية يومها لا تجد في غزو الدول القوية للضعيفة والسيطرة عليها أي منافاة أخلاقية فهكذا كانت الدول على مسار تاريخ البشرية، فليس هناك ما هو معروف اليوم من قوانين وشرائع الأمم المتحدة، وحرمة الحدود، واتخاذ قرارات مجلس الأمن، فغزو الدول بعضها بعضاً كان مبرراً أخلاقياً وثقافياً، فالكل يغزو ويغزى، والبقاء للأقوى.

ثم إن العرب (المسلمين) أنفسهم لم يترسخ في وجدانهم بعد منافاة الغزو ابتداءً للأخلاق، خاصة اتجاه الأعداء، فالعرب أمةٌ الغزو لها عادة، بل إن كتب الفقه لا ترى في الغزو الابتدائي لنشر الدعوة منافاة للدين ومخالفة لآيات الكتاب المبين، ومن هذا كله يتحصل لنا الوجه في عدم اعتناء كتب التراث ببيان المبرر الأخلاقي لغزو فارس والروم وسائر البلدان، غير أن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك مبرر شرعي وأخلاقي، فعدم الوجدان لا يعني عدم الوجود، وعدم الاهتمام لا يعني عدم الأهمية.

بين التأصيل القانوني والحملات الإعلامية:

تبدأ كل حرب بمبررات قانونية أو غير قانونية ولكنها مبررات تطرح لتبرير حالة الحرب، ولكن هذه المبررات تظهر في طرفي الحرب فقط، في بدايتها وفي نهايتها إن انتهت بالصلح أو بالتقاضي عند طرف ثالث، وأما إذا انتهت بهزيمة أحد الطرفين أو انتهت بالتوقف على حالة اللا حرب واللا سلم فإنها لا تطرح في النهاية لأنه لا يوجد مبرر لطرحها ولا طالب له، وأما ما يسيطر على الميدان منذ اندلاع الحرب حتى توقفها بأي نتيجة كانت فهو الدعاية والإعلام، ولكل حرب آلتها الإعلامية وقيمها التي ترددها وتركز عليها، شحذاً لهمم المقاتلين، فتارة تكون قيم الحرية والاستقلال والدفاع عن الوطن، وتارة محاربة الإرهاب الدولي، وتارة إثبات عزة الأمة واستحقاقها للعلو والسمو على العالمين، وتارة الجهاد في سبيل نشر الدين والتوحيد، وما شابه ذلك، إذ لكل حرب قيمها الحقيقية أو المكذوبة ، وبحسب ما يناسب كل طرف فيها.

ولأن المادة التاريخية قد كتبها أناس لم يشهدوا الحرب، عن أناس شهدوا أو لم يشهدوا، وعن أناس قد استشهدوا، فقد سهل ذلك عملية الإبداع والابتداع في صياغة ذلك التاريخ بحسب اهتمام الرواة ومواقفهم السياسية والمذهبيّة وانتماءاتهم القبلية، فقد تجد في الأخبار تضخيما لبطولة بطل أو قبيلة أو عشيرة لحاجة في نفس الراوي، وقد تجد انتقاماً نفسياً خفياً من بطل حقيقي من أبطال الإسلام، وهكذا تدخلت الأسباب والحاجات والانتماءات المختلفة في صياغة المادة الإعلامية ودمجها بالمادة التاريخية، إلا أن ذلك لا يؤثر إلّا في التفاصيل، أما النتائج الواقعية فتكشفها حقيقة التغيرات الميدانية.

وفي ظل امتداد حروب الفتوح وتتابع أحداثها بشكل مذهل لم يسبق له مثيل، وثبات نتائجها في الميدان إلى اليوم بحيث لم تعد شعوب هذه المناطق تجد نفسها إلّا أصيلة الانتماء للدين، بل وللعروبة في الوطن العربي، لم يعد أحد يهتم بالمبرر القانوني والشرعي لحروب الفتوح في أصلها الذي قامت عليه، هل هي دفاعية أم عدوانية، ولولا تراكم الاتهامات الغربية الاستشراقية، لما أولى أحد هذه الناحية اهتماماً، فالشعوب والأمم التي يُدَّعى أنها أدخلت في الدين قسراً هي اليوم حاملة لواء هذا الدين وباعتزاز بالغ، بل صارت هي بيضة الإسلام وهي لواؤه وفداؤه، ولكن أهل الغرب يريدون أن يكونوا ملكيين أكثر من الملك، في غيرة كاذبة على حقوق شعوب هم وإلى اليوم قد سقوها ولا زالوا يسقونها مرَّ الشراب ومسمومه، ولا زالت هي هي التي يُدّعى أنها أُدخلت الدين قسراً تواجههم باسم الدين الذي يتهمونه فيها، ولكنها غيرة الخصم الكاذب الذي لن يتركك حتى يردك عن دينك إن استطاع.

ولقد ضاع في حروب الفتوح المبرر القانوني والشرعي في خضم المادة الإعلامية وإعلام الشحن والتحفيز، وإبراز القيم الدينية والجهادية بل وفي كتب الفقه والتشريع أيضا، فكتب الفتوح- وهي كتب كتبت بعد النصر وفي أثنائه- لم تعتن بتسطير المبررات القانونية، ولكنها امتلأت بالمادة الإعلامية الحقيقية والخيالية، الصادقة والكاذبة، الواقعية والمضخمة، ولا ضير في ذلك لو لم يختلط الإعلام بالمادة التاريخية فلم يعد ممكناً التفريق بينهما بسهولة.

مكاتيب الرسول (ص):

بدأت أول العلاقات الدولية للمسلمين (دولة المدينة) مع الوضع الدولي مع بعث النبي (ص) كتبه لرؤساء الدول المجاورة يدعوهم فيها للإسلام، فقد بعث رسله بالكتب لسائر الممالك والإمبراطوريات المجاورة، مساوياً في ذلك بين التابع والمتبوع منهم، فلم يميز كسرى الفرس عن تابعيه من ملوك البحرين واليمن وعمان، ولم يميز قيصر الروم عن تابعيه من ملوك الشام ومصر وكانت رسالته تحمل معنى واحداً:

١. الدعوة للإسلام أن أسلم،

٢. التبشير بالسلامة إن هو أسلم: أن أسلم تسلم،

٣. التبشير بمضاعفة الأجر إن كان كتابياً " يؤتك الله أجرك مرتين".

٤.تحميله مسؤولية ضلال مستضعفي تابعيه

الشعوب والأمم التي يُدَّعى أنها أدخلت في الدين قسراً هي اليوم حاملة لواء هذا الدين وباعتزاز بالغ، بل صارت هي بيضة الإسلام وهي لواؤه وفداؤه، ولكن أهل الغرب يريدون أن يكونوا ملكيّين أكثر من الملك، في غيرة كاذبة على حقوق شعوب هم وإلى اليوم قد سقوها ولا زالوا يسقونها مرَّ الشراب ويُجرّعونها سمومه.

فعليك أثم المجوس .. الأريسيين

ولم تكن تحمل أموراً سياسية، ولا مطالبات مالية، ولا تهديداً ووعيداً.

وتباينت مواقف الملوك والعظماء في ردها على الرسالة، فمنهم من قبل موضوع الرسالة وأسلم وهم مرزبان البحرين التابع لفارس، وحاكمي عمان التابعان لفارس أيضاً، ومنهم من قبلها شكلاً وردها موضوعاً وهما مقوقس مصر، وملك الحبشة، ومقوقس مصر كان تابعاً لقيصر الروم، وأما ملوك الحبشة فكانوا يمثلون دولة مستقلة بذاتها.

ومنهم من اتخذ موقفاً عدائياً، وارتكب إجراءات مخالفة للأعراف الدولية فكسرى الفرس استشاط غضباً ومزق الرسالة، وتهدد وتوعد، ولكنه لم يقتل الرسول المبعوث، ثم بعث إلى تابعه في اليمن يأمره بقتال محمد وأسره أو القضاء عليه، وأما تابعي قيصر في الشام فقد أوثقوا الرسول المبعوث كتافاً ثم قتلوه صبراً .

ويستغرب من مؤرخي المسلمين أولاً فيما يتعلق بفارس حديثهم وكأن المعركة مع كسرى "أبرويز" قد انتهت بمجرد دعاء الرسول (ص) - فيما يروى- عليه وقوله لما سمع أنه مزق كتابه: مزَّق الله ملكه، وأن فارس قد انتهت بمقتله، وكأن الدول الكبرى يمكن أن تغفل عن عدو جديد يقع على خط تجاري مهم، وبالقرب من أرض اليمن الخاضعة لنفوذها يومئذ، بل وكأن كسرى الفرس يسمع برسول الله لأول مرة ولم ترفع للدولة الفارسية التقارير عنه وعن حركته وتهديده خط التجارة، في صراعه مع قريش مكة، وكأن مكة يومها كانت مدينة معزولة عن النظام الدولي التجاري القديم.

إن إسلام البحرين وعمان وحدهما يمثلان سبباً كبيراً لأن تغضب فارس من النبي ودعوته الجديدة، لأنهما مع سائر بلاد الساحل الجنوبي للجزيرة العربيّة كانوا تحت سلطان أكاسرة الفرس، وكانت تمثل بلاداً مهمة تقع على خط التجارة فتحميه وتساهم في تسهيله وأداء الخدمات له، وعلى هذا الخط تمر نصف البضائع العالمية يومها أو ثلثها.

إن موقع الدولة الإسلامية الجديدة خطير وحساس بالنسبة للدولتين فارس والروم، إذ أن العالم يومها كالعالم اليوم منقسم في الثراء والصناعة والمواد الأولية والمصنعة بين قسمين شرقي تمثله الهند والصين وبلاد الأرخبيلات الآسيوية وغربي تمثله بيزنطا وروما والبلاد التابعة لهما، وبين هاتين المنطقتين تقع المنطقة العربيّة الجرداء، الفقيرة في زراعتها وأمطارها، والغنية بموقعها الاستراتيجي الخطير، فكان

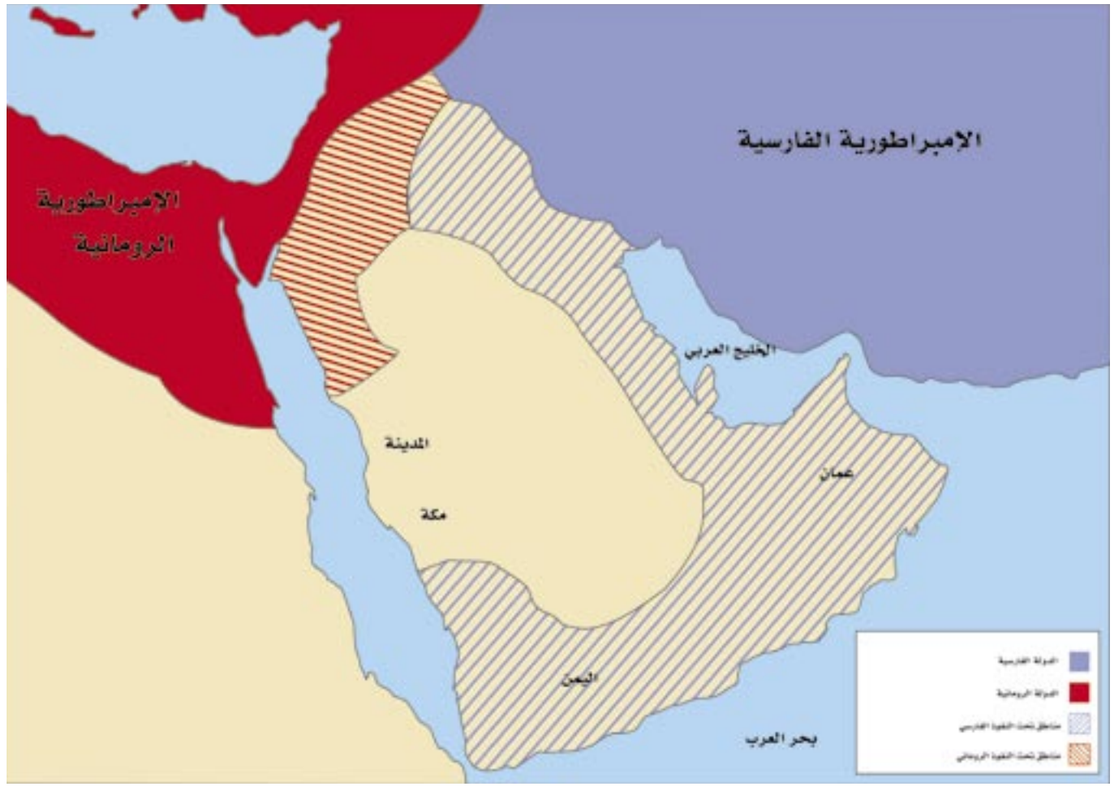

مهماً جداً للدولة الفارسية وللدولة البيزنطية إقامة الممالك والدول الصغيرة على طول خط التجارة بين هاتين المنطقتين في عمان والشحر ومهرة والبحرين واليمن وفي العراق والشام ومصر، فوجود الدولة الإسلامية كان وجوداً خطيراً على الدولتين، وظهرت خطورته أول ما ظهرت في تعرض المسلمين لقوافل التجارة التي تسيرها قريش الراعي الحجازي الأكبر للتجارة الدولية، ثم بالنسبة لفارس في تحول ولاء الحكم والناس في منطقتي البحرين وعمان نحوه، وهذا يشكل تغييراً سياسياً مهماً لا يمكن لفارس أن تسكت عنه.

إن التاريخ الإسلامي لا ينقل لنا على نحو ميسر ومفصل ماهية الإجراءات التي اتخذتها دولة الفرس لمواجهة النبي (ص) ولا نعلم بعد أن أمر كسراها بقتل النبي وإحضاره أسيراً ما الذي أحدثته من فعاليات في المواجهة، سواءً في اليمن أو في الحيرة حيث حليفهم الرئيسي الثاني المتمثل في دولة المناذرة، لكن مقتضيات السياسة والدول أنها كإمبراطورية عظيمة لم تسكت عما حدث.

نعم قد ينقل التاريخ شيئا هنا وشيئا هناك ولكن دون أن يبرز كقضية مهمة يحرص المسلمون على تكرارها وتوكيدها، فقد روى أن أبا بكر كتب للعلاء الحضرمي وقد بعثه لتحرير بني عبد القيس المحاصرين في جواثا بالبحرين من قبل المرتدين: "أنظر يا علاء لا تمرنَّ بحي من أحياء العرب إلا استنهضتهم إلى محاربة بني بكر بن وائل، فإنهم قد أتوا بالمنذر بن النعمان بن المنذر من عند كسرى ملك الفرس، وقد عقدوا على رأسه التاج، وقد عزموا على إطفاء نور الله وقتل أولياء الله، فسر وقل لا حول ولا قوة إلا بالله"

ويمكن إعادة نفس القول وإن بوضوح أكثر في مجال حرب المسلمين مع الروم، حيث بدأت هذه الحرب مع قتلهم لمبعوث رسول الله (ص)، فلم يتصرف رسول الله كما يتصرف حكامنا اليوم إذا ظلمهم الأقوياء، بل تصدى بما لا يمكن توقعه لغطرسة الروم وأتباعها، وأمر بتسيير جيش لمعاقبة حليف بيزنطا الذي قتل رسوله عدواً وبغياً، فكانت غزوة مؤتة، حيث تواجه ثلاثة آلاف من المسلمين مع مائة ألف من جيش الروم!.

إن المرء ليندهش من هذه الجاهزية البيزنطية، مائة ألف بل مائتين، ويحق للعقل أن يشكك في هذا الرقم لفرط ضخامته في مقابل جيش المسلمين الذي لن يكون إلّا نقطة في بحر، ثم تقرأ أن خالداً قد أفلت بجيش المسلمين من هذه المائتي ألف! إنه أمر لا يكاد يُصدق، ولا يتعقل المرء كيف يمكن أن يتقاتل مواجهة ثلاثة آلاف مع مائة ألف، ولكن المؤرخين المسلمين لا يتنازلون عن هذا الرقم إلّا صعوداً إلى مائتين من الألوف المؤلفة، هل كانت الروم لا تعلم عدد المسلمين فظنتهم جيشا كثيفا وإلا لما تجرّؤا على غزو الروم العظيمة؟! وهل لجأ المسلمون لتكتيكات حربية خاصة ليتفادوا بها مواجهة الروم إلا قليلا قليلا، ما هي طبيعة الميدان التي سمحت لثلاثة آلاف أن تقاتل مائتي ألف ثم

إنّ التاريخ الإسلامي لا ينقل لنا على نحو ميسّر ومفصّل ماهية الإجراءات التي اتّخذتها دولة الفرس لمواجهة النبي (ص) ولا نعلم بعد إنْ أمر كسراها بقتل النبي وإحضاره أسيراً، وما الذي أحدثته من فعاليّات في المواجهة.

تنسحب بأقل الخسائر؟ هذه تحتاج لدراسة ليس هنا مقامها.

واستمرت هذه المواجهة بعد مؤتة بغزوة تبوك التي سار فيها رسول الله (ص) إلى الروم في وقت مفاجئ وغير متوقع فيه الحرب، فأخذ من أتباع الروم غفلتهم وغرتهم، فقد كان الوقت صائفاً، والمدينة في عسرة من الجوع وشحة من الطعام ، وكان أهل الشام أيضاً في مصايفهم ولهوهم بحيث أخذ خالدٌ الأكيدرَ صيداً سهلاً وسط أهله وأنصاره، ولم يجد جيش المسلمين من يقاتله فاكتفى النبي (ص) بعقد اتفاقات وإبرام عهود مصالحة مع أصحاب الممالك الصغيرة من أتباع الروم ورجع.

لم يكن النبي (ص) غافلا عن خطر الروم، هذه الدولة العظيمة في قدراتها، والتي يعلم حتما أنها لن تتركه وشأنه، ولن تسكت له، ولن تكتفي بقتل مرسوله. لم يكن في ذهن النبي مطلقا أن عملية قتل المرسول كانت مجرد حدث طارئ أو زلة قدم، فلم يعتذر الروم عن فعلتهم، ولم يبعثوا أحدا للتفاوض، بل كانت حربهم معلنة واستعداداتهم تتزايد، وكان المسلمون يتوقعون منهم الغزو والعدوان، ولهذا ورد في خبر غزوة تبوك، أن النبي سمع خبرا يشاع أن هرقل قد جمع مائة ألف على حدود الجزيرة فتجهز لصدهم، فقد كانت أيام المواجهة قادمة لا محالة، فلن يسكت الروم عن مستقل جديد يهدد خط التجارة الدولية!

ولكن النبي (ص) لم يتنازل عن حقه في معاقبة المعتدين ، فأمر بتجهيز جيش أسامة المشهور في كتب الخلاف المذهبي بين المسلمين، وبالفعل ذهب هذا الجيش بعد لأي ولأي في زمن أبي بكر الصديق، ولا نعلم على نحو التفصيل ماذا جرى له وما الذي أحدثه، فأكثر الكتب تعتني بالخلاف المذهبي فيه فتفصل وتفصل، ثم تكتفي عن فعل الجيش وقائده بأنه غزى وغنم ورجع لحرب المرتدين خلال ستة أشهر.

وعليه فإن الحرب بين الروم والمسلمين بدأت بقتل مبعوث النبي (ص) ولم تتوقف أبداً، ولم يطلب أحدٌ فيها الصلح لا المسلمون ولا الروم، رغم أنها قد أكلت أرضا شاسعة من أراضي الشام التي كانت خاضعة لنفوذهم، بل استمرت في تتابع غريب، واستمر جيش المسلمين القليل العدة والعدد، المملوء بالنشاط والعنفوان يهزم الجيوش هزيمة على أثر هزيمة، ولكن دون أن تستسلم بيزنطا ولا أن تعقد صلحاً، وهكذا حتى سيطر المسلمون على كل الأراضي التابعة لهم والخاضعة لنفوذهم من الشعوب الأخرى غير الرومية كالعربيّة في الشام والقبطية في مصر والبربر في شمال أفريقيا. وظلت حالة الحرب بينهم لم تنته إلا حينما أسقط العثمانيون القسطنطينية وأقاموا دولتهم على أراضيها وأراض شاسعة من أوروبا الشرقية، بل ظلت وتواصلت تحت الرماد إلى أن عادت الكرّة للغرب فاستعمر كل بلاد المسلمين في حروب الاستعمار.

فكانت جريمة قتل مبعوث رسول الله (ص) وإصرار الرسول على مواجهة الطغيان والعدوان على قلة العدد والعدة، سبباً في سقوط هذه الإمبراطورية الواسعة القوية، وليس بمستغرب ذلك في عالم السياسة، فقد تظل الدول الكبيرة كبيرة في ظاهرها، نخرة في باطنها حتى يكشف هزالها ويتسبب في موتها حادث بسيط،كما كشفت دودة الأرض للجن موت سليمان حينما أكلت منسأته.

أمر آخر في هذا المجال يثير الاستغراب، يتناقله المؤرخون المسلمون تناقل المسلمات، وهو أن

هرقل عظيم الروم- وليكن من كان- لم يبادر إلى السؤال عن النبي (ص) إلّا حينما وصله كتابه يدعوه فيه للإسلام، وكأن المعارك على خط التجارة الذي يغذي مملكته ذهاباً وإياباً لا يهمه. ثم كيف يتعرف عليه؟ بأمر تابعيه بالبحث عن أي عربي من تجار السوق، ليكون مصدره في المعلومات، ومباشرة هكذا بين يديه، ثم تشاء الصدف فلا يعثرون إلّا على عدو النبي الأكبر، والقائد العام لحربه ومواجهته " أبو سفيان "!! ويريدون منك أن تتعقل كل هذه المصادفات بيِّنة الحبكة، ثم ويا للعجب! يتحول هرقل الطاغية إلى حكيم عليم فيوجه أسئلة أهل العرفان لأبي سفيان، فبصيرته الرائقة الرَّائعة تهديه لِلُبّاب السؤال ودقيق ما يكشف عن صدق الحال! والعجب الثاني هو تحول أبو سفيان الكافر عن علم والمحارب العنيد، بالإجابة على أسئلة هرقل هذا إجابات منصفة وموضوعية يخالف فيها نفسه وموقفه وتاريخه الذي كان عليه وعاد إليه، ثم لا يكتفون بذلك حتى يميلوا هرقل قلباً للإسلام على يد أبي سفيان! ثم بعد كل هذه الأكذوبة لا يستنكرون من أن يعودان كلاهما لمحاربة النبي (ص) والمسلمين أشد الحرب هذا في الحجاز وهذا في الشام!!

ويريد منك المؤرخون أن تقول سبحان الله! كل شيء جائز ولو على خلاف منطق الأشياء، ولكن لا تعجب إذا كان الراوي قد روى هذا وهو في دولة آل أبي سفيان الأموية، أو كان نصرانياً معجباً بهراقلة الروم، أو مسلماً مأخوذاً بالروعة في الحكايا فيسطرها على أنها تاريخ، وما أكثر ما أدخل طلب الروعة هذه في حكايا التاريخ، وعلى الأخص تاريخ الفتوح والمعارك والبطولات، التي كانت تسرد على الأسماع في المقاهي والحانات ومجالس الإنس كحكايات عنترة وأبي زيد الهلالي والمهلل فارس ربيعة!

إن ما عرُف بحروب الفتوح لم تمض في كلّ الجهات التي لم تستجب للإسلام، فقد كانت هناك ثلاث دول تحيط بالمسلمين، الروم والفرس والأحباش، هذه ثلاث دول مستقلة وذات قرار ذاتي، وأما البقية فهي أشبه بالدول التابعة التي تتمتع بقرار ذاتي داخلي فقط في إطار تحالفات دولية ملزمة، كما في مملكة البحرين وعمان ومملكة القبط في مصر ودولة المناذرة في العراق والغساسنة في الشام ومملكة بُصرى في الشام إلى سائر دول ممالك الطوائف في المنطقة، واليمن كان موضع تنازع بين الأحباش والفرس في تجاذبات مع قوى داخلية، وكان يومها تابعاً للفرس.

نلحظ هنا أن الحرب لم تتجه صوب الحبشة مع أنها كانت من الدول التي بعث لها رسول الله (ص) برسالته ودعا حاكمها وشعبها للإسلام، ولكنه رد رداً جميلاً دون أن يستجيب لأصل الدعوة، فلم تنشأ بينه وبين المسلمين حرب ولا عدوان، وظل حتى نهاية تاريخ المسلمين جهة مسالمة تدين بالنصرانية وفيها كثير من المسلمين، فلماذا لم يغزهم المسلمون إذا كان المراد من الرسائل هو إكراههم على الإسلام؟ فهي كانت بلاداً قريبة والوصول إليها متيسر خاصة بعد إسلام البحرين وعمان واليمن، فما هو إلّا ممر بحري ضيق مسلوك ومجرب ومعروف سلكه المهاجرون من قبل وتسلكه سفن التجارة بشكل يومي ودائم.

إن اتخاذ الحرب جهة فارس وبيزنطة يبين لنا أن موقف الدولتين الذي بدأ بالحرب والعدوان هو الذي حدد اتجاه الحرب والتي صارت فتوحاً، ولو نظرنا في الجغرافيا السياسية لذلك الوقت لو جدنا أن فتوح المسلمين الأساسية لم تتعد حدود نفوذ الدولتين فقد كانت فارس تهمين على سائر بلاد اليمن والبحرين وحضرموت والشحر وعمان وبلاد العراق وأرض فارس وما وراء النهر وكانت بيزنطة تسيطر على بلاد الشام عامة وعلى مصر والساحل الإفريقي كله، وهذا هو بالضبط مسار حروب الفتوح صقعاً بعد صقع وبلاداً بعد بلاد، فالحرب مستمرة مع عدوين اثنين فقط في معارك متعددة معركة على أثر معركة، وما ساعد على سرعة هزيمة الفرس والروم أن أكثر المعارك جرت على أراض تسكنها شعوب غير فارسية وغير (رومية) بل كانت عرباً وقبطاً وبربراً، شعوب ظلت مهمشة سياسياً، خاضعة لهيمنة المركز الذي كان يبعث الرؤساء والرقباء، مما سهل عملية الفتح، وكلما اقترب المسلمون من مركز الدولة وشعبها الأصل المتعصب لها اشتدت حدة المعارك، ولكن المسلمين حينها كانوا قد نشطوا واستولوا على الكثير من البلاد والعتاد والأموال والأنصار، مما ساعدهم على مواجهة المعارك الصعبة، ولكن مقاومة العواصم وسكانها الذين يحملون عصبيتها كانت شديدة وطويلة، وبالنسبة للروم فقد استمرت المعركة طويلا ولم تسقط عاصمتهم إلّا في وقت متأخر جداً في الدولة العثمانية، ولعل مرد ذلك لوجود الحمية والولاء وشعور الانتماء القومي والديني للدولة.

والآن فلنحاول أن نجري مطابقة بين الخارطة السياسية للدولة الرومانية البيزنطية والفارسية مع خارطة البلاد التي فتحها المسلمون.

تأمل في الخارطات التي بين يديك، وقارن بين منطقة الدولة الفارسية ومناطق نفوذها والدولة الرومانية ومناطق نفوذها مع مناطق الدولة الإسلامية بعد الفتوح، ستجد ما ذكرناه واضحا وجليا.

إسلام عمر بن الخطاب [رض]

بقلم: أ. أحمد بن خميس

مَا كُنّا نَقْدِرُ عَلَى أَنْ نُصَلِّيَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، حَتّى أَسْلَمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ، فَلَمّا أَسْلَمَ قَاتَلَ قُرَيْشًا، حَتّى صَلّى عِنْدَ الْكَعْبَةِ.

عبد الله بن مسعود

من الصعوبات العظمى التي كانت تواجه الأنبياء (ع) إخراج النّاس من ثقافة (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ) إلى ثقافة النظر فيما هو أهدى (أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ)، ويدرك الأنبياء العظام (ع) صعوبة هذه النقلة؛ لذا كان سلاحهم لتذليل هذه العقبات الصبر والدأب والعفو وطول النفس واستغلال الفرص، في كل فرصة كانوا يودعون في العقول والنفوس والقلوب بذورًا ينثرونها في كل اتجاه ويتركون تفتحها للزمن، فمنها ما يتفتح عمّا قريب ومنها ما يحتاج إلى أمد بعيد، كالرياح تمامًا تنثر البذور والحبوب في كل وجه فتبقى مطمورة في التربة في انتظار قطرة من ندى أو صبّة من غيث، وما إن تلامس حشاها برودة الماء حتى تنبت.

أدركوا (ع) أنَّ النقلة من ثقافة المألوف إلى ثقافة جديدة غير مألوفة تتطلب النظر في كلّ الثوابت العقليّة المسلمّة، والثقافة الدينيّة المقدسة، والعلاقات الاجتماعيّة المتأصلة، نقلة صعبة مستصعبة، تحتاج إلى قوة عقل ونفس وقدرة على التضحية وفسحة من التفكير ورصيد هائل من الصبر والصمود.

لقد كان في إسلام الصحابي عمر بن الخطاب رضي الله عنه عبرة ودروس نعرف منها كيف يشرح الله قلوب النّاس فيسبب أسبابًا ينقلهم بها من الظلمات إلى النور في طرفة عين، ثمّ يتحول من معسكر العداء إلى الإسلام إلى معسكر النصرة، فسبحان الله الذي هو على كلّ شيء قدير.

كان عمر بن الخطاب (رض) في أوّل البعثة النبويّة الشريفة نافرًا من الإسلام، كثير الأذى لرسول الله (ص)، لا يكاد يترك رسول الله (ص) في حال سبيله في ليل ولا نهارٍ فإذا لمح دانٍ منه (ص) سارع لصدّه وحرفه عن وجهته لئلا يسمع من رسول الله (ص) قليلاً و لا كثيرًا. نما إلى علمه ذات يوم أن جاريته أسلمت فاشتد غضبه عليها، فجلدها حتّى تعب، فقالت له متحدية: الله أتعبك ولم أتعب.

كان عمر في الجاهليّة يدمن شرب الخمر حتّى الصباح، ذهب ذات ليلة ليشرب فلم يلقَ أحدًا من ندمائه، فعرّج على المخمرة فلمَّ يجد صاحبها، فخطر له خاطر أن يذهب إلى البيت الحرام ليطوف به سبعًا أو سبعين، فرأى رسول الله (ص) يصلي، فقال: لو أنّي استمعت لمحمّد الليلة ما يقول ولئن دنوت منه لأُرَوِّعَنَّهُ، فلمّا دخل البيت الحرام جاء الحجْر فمشى رويدًا رويدًا حتّى اختبأ تحت ثيابها وَرَسُولُ اللهِ (ص) قَائِمٌ يُصَلّي ويقرأ في سورة الحاقة، فلمّا سمع عمر القرآن قال في نفسه: هذا شعر، وإذا بالنبي (ص) يقرأ: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ)، فقال عمر: إذن هو كاهن، وإذا بالنبي(ص) يقرأ: (وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) فقال عمر: إذن ما هو وإذا بالنبي(ص) يقرأ: (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فرقّ قلبه وارتعد وابتعد فقد وقع الإسلام في قلبه، ولكنَّه لم يسلم. في طريق عودته إلى بيته رأى امرأة مسلمة قد ذهب زوجها في حاجة وهي تحمل على كاهلها حملاً ثقيلاً تستعد لسفر، فقال: إنه لَلانطلاق يا أم عبد الله إلى أين يا أمة الله؟ قالت: أفرّ بديني منكم، والله لنخرجنَّ في أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجا، فقال: لا يليق بك أن تتركي أرضك!! ثم قال: صحبكم الله.

أحست المرأة برقة لم تعهدها في عمر من قبل، فنظرت في وجه فشعرت أنَّ قلبه قد لان، فانصرف عمر وهو حزين قد آلمه خروج هذه الأسرة من ديارها نتيجة أذى قومها، فلمّا عاد زوجها أخبرته بما جرى وقالت" إن عمر سيسلم، قال لها أتطمعين أن يسلم عمر، والله لا يسلم عمر حتى يسلم حمار الخطاب جدّه !! يأسًا منه لما كان يرى من غلظته وقسوته عن الإسلام.

كانت الحرب الإعلاميّة على رسول الله (ص) يومئذ على أشدها فسمع أن محمّدًا (ص) يفرق بين الناس، فأصابته انتكاسة فأخذ سيفه ووضع فيه السم وقرّر قتل النبي(ص) وهو يقول: لا يعرف أين الحق وأين الباطل وهذا فرق بيننا في مكة، وقصد بيتًا عند الصفا قيل له أنَّ محمّدا يجتمع فيه بأصحابه.. فلقيه نُعَيْمٌ بن عبد الله وكان يخفي إسلامه فلمّا رأى الشرّ باديًا في عينيه فقَالَ لَهُ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا عُمَرُ ؟ فَقَالَ: أُرِيدُ مُحَمّدًا هَذَا الصّابِئَ الّذِي فَرّقَ أَمْرَ قُرَيْشٍ، وَسَفّهَ أَحْلاَمَهَا، وَعَابَ دِينَهَا، وَسَبّ آلِهَتَهَا، فَأَقْتُلُهُ فَقَالَ لَهُ نُعَيْمٌ: وَاَللّهِ لَقَدْ غَرّتْك نَفْسُك مِنْ نَفْسِك يَا عُمَرُ أَتَرَى بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ تَارِكِيك تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَقَدْ قَتَلْت مُحَمّدًا أَفَلاَ تَرْجِعُ إلَى أَهْلِ بَيْتِك فَتُقِيمَ أَمْرَهُمْ ؟ قَالَ. وَأَيّ أَهْلِ بَيْتِي؟ قَالَ خَتَنُك وَابْنُ عَمّك سَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو وَأُخْتُك فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطّابِ، فَقَدْ وَاَللّهِ أَسْلَمَا، وَتَابَعَا مُحَمّدًا عَلَى دِينِهِ فَعَلَيْك بِهِمَا. قال نُعَيْمٌ ذلك ليحمي النبي (ص) ويصرف عمر عمّا أراد: فرجع عمر غاضبًا وقصد بيت أخته، فضرب الباب بعنف فسمعوا صوته، وكان في البيت أخته وزوجها وخبّاب بن الأرت يقرؤهما آيات من سورة طه في صحيفة، فلمّا سمعوا حسّه تغيب خبّاب في مخدع لهم، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وكان عمر حين دنا من البيت سمع قراءة خبّاب فَلَمّا دَخَلَ قَالَ مَا هَذِهِ الْهَيْنَمَةُ الّتِي سَمِعْتُ؟ قَالاَ لَهُ: مَا سَمِعْتَ شَيْئًا. قَالَ: بَلَى سمعت أنك صبأت فدفع زوجها وأخذ يضربه على وجه بقبضته، الضربة تلو الأخرى، فقال له سعيد بن زيد: أرأيت إن كان الحقّ في غير دينك، فقامت إليه أخته تريد أن تكفّه عن زوجها فأمسكته وهزته بعنف وهي تقول: أرأيت إن كان الحقّ في غير دينك، فرفع يده فلطمها بظهر يده على وجهها وشجّ شفتها وأذنها، فوقعت الصحيفة، فلمّا رأى عمر الدم يسيل من أخته ندم على ما فعل ولان، فقال لأخته: أَعْطِينِي هَذِهِ الصّحِيفَةَ الّتِي سَمِعْتُكُمْ تَقْرَءُونَ آنِفًا أَنْظُرْ مَا هَذَا الّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمّدٌ وَكَانَ عُمَرُ كَاتِبًا؛ فَلَمّا قَالَ ذَلِكَ قَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ إنّا نَخْشَاك عَلَيْهَا؛ قَالَ لاَ تَخَافِي. وَحَلَفَ لَهَا بِآلِهَتِهِ لَيُرُدّنّهَا إذَا قَرَأَهَا إلَيْهَا؛ فَلَمّا قَالَ ذَلِكَ طَمِعَتْ فِي إسْلاَمِهِ فَقَالَتْ لَهُ يَا أَخِي، إنّك نَجِسٌ عَلَى شِرْكِك، وَإِنّهُ لاَ يَمَسّهَا إلاّ الطّاهِرُ فَقَامَ عُمَرُ فَاغْتَسَلَ فَأَعْطَتْهُ الصّحِيفَةَ فأخذها وفلّها وقرأ فِيهَا: طه × مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى × إلاّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى × تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلا × الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى × لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَرَى × وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى × اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى × فقال أين محمد ؟!فقيل له هو في دار الأرقم فأسرع إلى دار الأرقم، وما إن بلغها حتّى خبط الباب، وكان بلال واقفًا خلف الباب فنظر من خَلل الباب فرأى عمر متوشحًا سيفه، فرجع إلى رسول الله (ص) فزعًا، فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف فارتعشوا منه وممّا سمعوا عنه قبل قليل، فقال حمزة: مالكم اثبتوا!! ائذن له فإن جاء يريد خيرًا بذلناه له وإن كان يريد شرًا قتلناه بسيفه، وقام حمزة فوقف خلف الباب فما إن فتح بلال الباب ودخل عمر حتّى هجم عليه حمزة وطوّقه من الخلف بذراعيه وقال له: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ كان النبي (ص) جالسًا يشاهد الوضع فلمّا التقت عينه (ص) بعين عمر قال النبي (ص): تعالَ يا عمر، فتركه حمزة فتقدم للنبي (ص) فأول ما وصل للنبي (ص) قام إليه (ص) وأمسكه من قميصه وأخذ يهزه هزًا حتّى وقع على ركبتيه، والنبي (ص) يقول له بصوت غاضب: أما آن لك أن تسلم يا ابن الخطاب؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك يا محمّد رسول الله، فهلل المسلمون وكبروا. ثم قال عمر: يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ قال: نعم، قال: أليسوا هم على الباطل ؟ قال: نعم، قال ففيم الاختفاء ؟ فقال: ما ترى يا عمر؟ قال: نخرج إليهم ونعلن إسلامنا.

أراد عمر أن يستفز أبا جهل فذهب إليه وطرق عليه الباب فخرج أبو جهل فقال عمر: أتعرف يا أبا الحكم ؟ قال: ماذا ؟ قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال أبو جهل: أفسدت عليّ يومي وغلق الباب، فذهب لأبي سفيان: فطرق عليه الباب، فلمّا خرج إليه قال: أشهد أن لا إله إلا الله. وأراد أن ينشر خبر إسلامه فقصد جميل بن معمر الجمحي وكان رجلاً مذياعًا لا يكتم سرًا، فاختاره ليذيع خبر إسلامه في مكة فقال له يا جميل أأكتمك سرًا ولا تخبر أحدًا ؟ فقال جميل نعم، قال: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمّدًا رسول الله !! فاختفى جميل من فوره وما هي إلا لحظات وإذا بجميل يلعلع بالخبر في مكة يا معشر قريش قد صبأ عمر، فمشى عمر وراءه وهو يقول: لا والله ما صبئت بل أسلمت، وحدثت مشادة بينه وبين قريش.

فلمّا عاد إلى بيته جمع أولاده فقال لهم كلامي من كلامكم علي حرام حتى تشهدوا أن لا إله إلا الله، فقال ابنه الأصغر عبد الله أنا مسلم منذ عام، فأمسكه وأخذ يهزّه وهو يقول: كنت ستضيع أباك، وكان دائمًا يكررها عليه جادًا وممازحًا، فسبحان الله مقلب القلوب والأبصار نقلة هائلة انتقلها عمر بن الخطاب (رض) في ضحية يوم.

صلح الحديبية
درس في تحديد الغاية الأهم

بقلم: الشيخ ابراهيم الجفيري

استبشر المسلمون خيراً، حين أخبرهم نبيُّ الله (ص) بأنّه رآهم في منامه يطوفون معه حول الكعبة، وكانت بالفعل بشرى، تعوّدوا على مثلها، لا يشكّون في صدقها ولا في تحقّقها، فطالما أخبرهم وبشّرهم بأشياء أخرى، فكانوا يرون ما بشّر به (ص) واقعاً ملموساً. إذن هناك عمرة قادمة، ولّما عزم (ص) على التوجّه إلى مكّة معتمراً ما كانوا يشكّون في أنّها هي العمرة الموعودة، وبنوا على هذه الرؤيا كل ما بنوا، مع أنّ الوحي لَم يأتِ له بشيء فيها، فلم يستفسر أحدٌ منهم كيف سيتحقّق ذلك؟ وما هي الوسيلة؟ وما الموقف الذي ستتّخذه قريش؟ ثم ما العمل لو رفضت دخولهم مكة؟

ولو أنّ المسلمين تداولوا الأمر، متسائلين بمثل هذه الأسئلة، لربمّا خلقوا في أنفسهم أرضيّة، تساعدهم على تقبل خطة النبيّ (ص) من دون تلكّؤ، أو اعتراض، إلا أنّهم كما يبدو أخذوا رؤيا النبيّ (ص) نتيجةً حتمية، غير مكترثين بالواقع والعقبات، ومن ثمّ فإنّ الضمان الإلهيّ، المتمثّل في هذه الرؤيا، لا يحتاجون معه إلى شيء، لا إلى تخطيط، ولا إلى معرفة إمكانات العدوّ، من نقاط قوّة، ونقاط ضعف، ولا إلى أيّ شيء آخر، فظنوا بأنها العمرة التي خرجو ا لها في هذا العام، في حين أن السماء تخطط (مع النبي) أن تكون العمرة المصدقة للرؤيا هي التي ستقع العام المقبل بعد الصلح لا قبله.

النتيجة حتميّة، والعمرة آتية، لا شكّ فيها، غير أنّ الفرق بين النبيّ (ص) وأصحابه، هو أنّه كان يراها نتيجة حتمية مرتبطةً بكامل أسبابها، وتخطيطه الكامل وفق دراسة الظرف والاحتمالات هو من صميم أسبابها، فلابدّ له (ص) من تحمّل أسباب نجاح العمرة، آخذًا في الاعتبار الواقع القائم بكلّ تعقيداته، لذلك من الطبيعيّ أن يضع خطّة كاملة، يدرس فيها كلّ شيء يمكن أن يؤثّر على غايته من حركته تلك، سلباً وإيجاباً، من ناحيته وناحية عدوّه، وما هي الأشياء التي يمكن أن يستغلّها لصالح غايته، ووضع أمام كلّ عقبة حلا مناسبا، فوضع (ص) خطة دقيقة شاملة ضامنة تبلغه هدفه الأعلى، منها قراره الخروج في الأشهر الحُرم ليمنع قريشاً خيار القتال، والعشرات من الدقائق الحكيمة التي يضيق بنا سردها. وكان الهدف الحقيقي للرسول مغيباً، في ثنايا عمرته، لذلك لم يدركه لا أصحابُه ولا أعداؤه. وقد حسب الطرفان، أصحابُ الرسول، وقريش، أنّ غايته (ص) فعلاً هي العمرة، فكانت العمرة هي السقف الأعلى الذي لم يتجاوزه تفكيرُ الطرفين، لذلك لاحظنا كيف كان أصحاب النبيّ من جانب، وقريش من جانب، يتجادلان، في مفردات بنود الصلح (الحديبيّة)، فقريش واندفاعًا من كبريائها، شرطت لنفسها، أن يرجع محمّد والمسلمون عامهم ذاك، ولهم أن يعتمروا في العام القادم، فلم تتجاوز نظرة قريش موضع قدمها، وكلّ الذي جاهدت من أجله، هو خوفها من أن تقول القبائل العربية لقد ذلّت قريش، وضعفت وجبنت أمام محمّد، (فها هو يدخل عليها عنوةً وقد باغتها ووقف على مشارف مكّة من دون أن تدري من أيّ طريقٍ جاء، وها هو يدخل رغماً عنها ويطوف بالبيت، كما خطّط وأراد)، هذا ما كانت تخشاه قريش.

لقد أعمى هذا الكبرياء بصيرة قريش، فلم تعرف الغاية البعيدة للنبيّ (ص)، ولو كان الأمر بيد المسلمين، لماحكوا كما ماحكت قريش، بل وأكثر منها، بل هم بالفعل ماحكوا كثيرا، واستراحت نفسُ قريش بعض الشيء، عندما قبل النبيُّ ما اشترطوا، وبدت تلك الشروط في نظر المسلمين غير ملائمة لعزّتهم، وهم الذين أذاقوا قريشًا ما أذاقوها، وهم اليوم في العتاد والرجال، أكثر منعة، من أيّ وقت مضى، فيفترض أن لا يقبلوا شرطاً، كأنّ الذلّ فيه، وكأنّهم المغلوبون، فلماذا لا نردّ عليهم شروطهم، هكذا قال المسلمون فقد أقبل عمر بن الخطاب على أبي بكر الصدّيق فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلي.

كانت العمرة ذريعة الرسول (ص) إلى مبتغاه، فالقتال ليس غايتَه بل طارئٌ مفروضٌ عليه، إنّما له في الصلح غاية، وهو أن يكون حرًّا في تبليغ دعوته بسلام، لمن يشاء من الناس، وما تزال قريش عرقالاً كبيراً في هذا الطريق، وهو (ص) يرى أن لا بد من تذليل هذه العقبة.

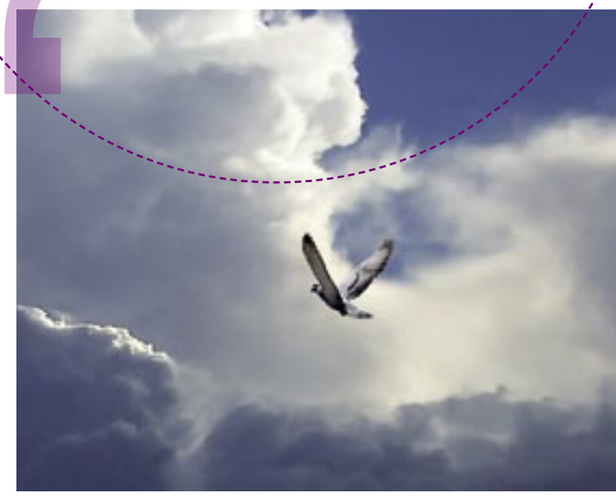

قال: أوَلسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوَليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنيّة في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله... ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: "بلى"، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: "بلى"، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: "بلى"؛ قال: فعلام نعطي الدنيّة في ديننا؟ قال: (أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني).

ومنذ البداية اقسم المسلمون أن لا يكتبوا، إلا (بسم الله الرحمن الرحيم)، حينما اعترض عليها سهيل بن عمرو، مفوَّض قريش، أما رسول الله، صاحب الغاية الأبعد، فقال اكتبها (باسمك اللهم)، وبقي المسلمون والتوتّر غالبٌ عليهم، غير راضين عن الصلح، وكأنّ فيه شيئاً من مهانتهم، وما زالت تلك حالهم، حتى بعد أن انتهى الطرفان، من توقيع الصلح، فأين رؤيا رسول الله، أين العمرة، وأين الطواف؟ وكيف نرجع ونحن الأعزّ ودون أن يبلغ الهدي محله؟!

وحينما أمرهم النبيُّ أن ينحروا ما كان معهم من الهدي، وأن يحلقوا رؤوسهم، لم يستجيبوا لأمره، فأعادها ثانية وثالثة (وكان إذا أمرَ أمر ثلاثًا، وإذا نهى نهى ثلاثًا). ودخل على أم سلمة، وقد بدا على ملامحه الشريفة، تأثيرُ الموقف فأشارت عليه، أن يخرج وينحر ويحلق ولا يكلّمهم بشيء ففعل (ص) كما أشارت هذه "المرأةُ" العظيمة، فلمّا رأوا رسول الله، فعلوا كفعله، لكنّهم رجعوا -كما رجعت قريش- كلّ طرف غير راض عن الصلح وقد نزلت هذه الآية (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً) (الفتح:٢٧). لتؤكّد صدق هذه الرؤيا، ولتُفهم المسلمين أنّ وراء الرؤيا عمرة غير هذه العمرة التي هي مقدمة لها وشرط لحصولها، فثمة أمرٌ عظيم وفتحٌ مبين لم يدركوه، أمّا رسول الله فكانت هذه العمرة الاختبارية في نظره ليس إلا وسيلة، لما هو أعظم، فقد كانت ذريعته إلى مبتغاه، فالقتال ليس غايتَه بل طارئٌ مفروضٌ عليه، إنّما له في الصلح غاية، وهو أن يكون حرًّا في تبليغ دعوته بسلام، لمن يشاء من الناس، وما تزال قريش عرقالاً كبيراً، في هذا الطريق وهو (ص) يرى أن لا بد من تذليل هذه العقبة، ولقد أفصح عن غايته هذه عدّة مرات في طريقه إلى مكّة، من دون أن يتحدّث عن العمرة، ما يؤكد أنّ العمرة هذه ليست إلا وسيلة لبلوغ هذه الغاية.

فحينما بلغه خروج خالد بن الوليد، في مائتي فارس، للتحرّش بهم ومواجهتهم وصدّهم عن دخول مكة -وكان (ص) قد أخذ هذا الاحتمال

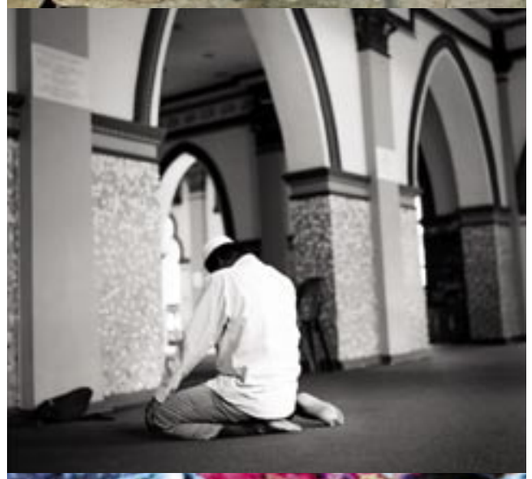

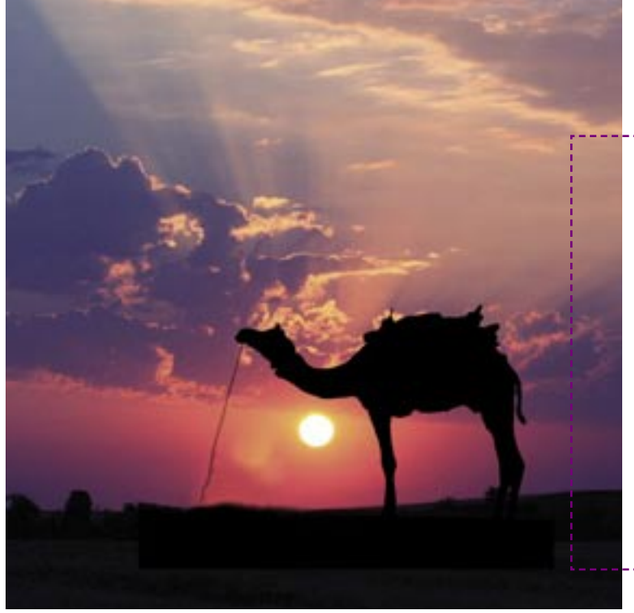

حينما بلغ الرسول (ص) خروج خالد بن الوليد، في مائتي فارس، تنكّب الطريق وسلك طريقا وعرًا. كذلك لما وصل "ثنيّة المرار" بركتْ ناقتُه فقال الناس خلأت، فقال (ص) ما خلأت، وما هو لها بخُلُق، ولكن حبسها حابسُ الفيل.

بعين الاعتبار ووضع ما يراه حلاًّ مناسبا له، وفعلا قد تنكّب الطريق وسلك طريقا وعرًا- وقال: (ويحَ قريش قد أكلتهم الحرب، فماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم، دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة، فما تظنّ قريش، فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به، حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة) - وأشار إلى عنقه- كذلك لما وصل "ثنيّة المرار" بركتْ ناقتُه فقال الناس خلأت، فقال (ص) ما خلأت، وما هو لها بخُلُق، ولكن حبسها حابسُ الفيل (وهذا تأييد إلهيّ للغاية التي في نفسه والتي هي أكبر من ذات العمرة التمهيدية)، ثم أردف قائلا: (لا تدعونيّ قريش اليوم إلى خطّة يسألوني صلة الرحم، إلّا أعطيتهم إياها). وبينما هم كذلك جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر في قومه (وكانوا عيبة نصح رسول الله) فقال إني تركت كعبة بن لؤي وعامر بن لؤي قد نزلوا أعداد مياه الحديبية -أمام مياه وافرة- معهم العوذُ المطافيل - النوقُ المعدّة- وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت، فقال (ص): إنّا لم نأتِ لقتال أحدٍ، ولكنّا جئنا معتمرين، وإنّ قريشًا قد أنهكتهم الحرب، وأضرّتْ بهم، فإنْ شاءوا مادتْناهم مدّة، ويُخلّوا بيني وبين الناس (هنا عبرّ عن هدفه الأعلى)، فالغاية من المدّة أن "يُخلّو بيني وبين الناس"، فقال بديل بن ورقاء، سنبلغهم ما تقول، وهذا بعينه ما يريده (ص) فالغرض الذي كرّره النبيُّ غرض أعلى من ذات العمرة وأعلى حتى من الصلح إلا أنّ الصلح يعني الكثير لصالح المسلمين، ففيه اعتراف بالإسلام كدين والاعتراف بمحمّد كنبيّ وبحقّه في التعبير عن معتقده ووجوده بالدعوة لله، فضمن النبيُّ حريّة اللقاء بمن شاء من القبائل، ولقد دخل بعد الصلح جموعٌ غفيرةٌ في الإسلام وتضاعف عدد المسلمين، وبالمقارنة نعرف أثر هذا الصلح على الإسلام والمسلمين ففي هذه العمرة خرج رسول الله و معه من المسلمين وغير المسلمين ألف وأربعمائة رجل وعاد بعد عام في عمرة القضاء بألفين من المسلمين تصديقا لرؤياه، بينما خرج بعد عامين وهو عام فتح مكّة بعشرة آلاف رجل من المسلمين! إذن فقد حقق الصلح للنبيّ ما كانت تتهرّب منه قريش ممّا لم يُقيّمه المسلمون حقّ التقييم من اضطرار قريش لإبرام الصلح، وكان ذلك آخر انتكاساتها، وآخر فتوحات محمّد، فقد دُفعت قريش للصلح دفعًا في عقر دارها، تحقيقاً لمقولة النبيّ الخالدة بعد انخساء الأحزاب في الخندق (اليوم نغزوهم ولا يغزونا)، وتغيّرت عقليّة قريش وموقفها من الرسول، الذي استخلص بالسلم شرعيّة وجوده ووجود دينه وجماعته، فانطلق المسلمون بكامل حرّيتهم ينشرون دينهم الوضّاء ويُبشّرون بقيَم السماء والعدل، وتجاسر هو (ص) ليرُسل بكلّ مشاعر الرحمة والعزيمة كُتبَه السامية إلى ملوك عصره يدعوهم فيها لخير الدنيا والآخرة، للالتحاق وشعوبهم بركب آخر دين، وأتاح له هذا الصلح أن يتفرّغ لجيوب المفسدين في الأرض المقدّسة من عُتاة اليهود، فعرج على معاقلهم يدكّ حصونهم، ففتح خيبراً، وصالحه أهلُ فدك.

فما أعظمه من فتح عظيم –ذلك الصُلح النبويّ الخارق للزمان- حيث دخلتْ القبائل العربية تباعاً في دين الله وأفواجاً، وحيث بلّغ رسول الله كلمة ربّه إلى الملوك، وحيث حطّم حصون مردة اليهود، وتوّج ذلك كلّه بفتح مكّة حين غدر أهلُها بعهدهم بعد عامين فسقطت كما تسقط التفاحةُ حين نضجها عفواً، ومن آثار ذلك أيضا رجوع جعفر بن أبي طالب ومن معه من إخوانه المسلمين من الحبشة، حتى قال رسول الله: لا أدري بأيّهما أُسرّ بفتح خيبر أم برجوع جعفر!

النبيّ الإنسان

بقلم: م. حسن الشارقي

من الغريب أنك حينما تبحث في كتب السيرة عن خير خلق الله – المصطفى محمد (ص) فإنّك لا ترى إلا النزر اليسير مما يصفه كإنسان، لقد ركّز المؤرّخون في تاريخ السيرة على الحوادث السياسية الكبيرة، وتناولوا بشيء من التفصيل الغزوات والتحالفات وخطابات الدعوة بينه وبين كبار المشركين وبينه وبين الملوك والسلاطين بعد ذلك، لذا لا يضلّ الباحث الذي يريد كتابة فنّ السياسة أو القيادة أو الإدارة أو الحرب في حياة الرسول أن يجد مراده، ويستطيع أن يسطّر العديد من المواقف التي كان فيها (ص) علما ومدرسة فريدة في تاريخ الإنسانية أجمع.

ولكنك لو أردت أن تكتب عن الرسول الإنسان، عن صفاته وأخلاقه مع صحبه أو زوجاته أو أطفاله أو حتى مع المشركين، لو أردت أن تصف هذا الإنسان كيف يمشي وكيف يتحدّث وكيف يمزح وكيف يأكل وكيف يتريض، لو أردت أن تعرف كيف كان (ص) يتعامل مع الأطفال والغلمان، وكيف كان يخاطب البسطاء والعبيد ويجلس معهم ويحنو عليهم، كيف كان يستقبل أصحابه في مجلسه فيسألهم أحوالهم ويتفقدهم، فإنّك بلا شك بحاجة إلى بحث مضنٍ ومجهود كبير للعثور على النزر منها.

لنقرأ معا بعض هذا النزر اليسير من سيرته وهديه الذي يبين لنا شيئا من شخص هذا الإنسان العظيم، ففي أحد الأيام كانت أم أيمن حاضنته (ص) ونساءٌ من الأنصار يسقين الماء، فرماها حبان بن العرقة – مازحا – بسهم فأصاب ذيلها، (ذيل ثوبها) فما كان منه إلا أن ضحك.

فدفع النبي، (ص) إلى سعد بن أبي وقاص سهماً وقال: ارمه.... فرماه فأصابه في ثوبه فيما بين فخذيه، فضحك النبي، وقال: استقاد لها سعد، أجاب الله دعوتك وسدّد رميتك.

ولنا أن نتدبر في هذا الموقف وسماحة الرسول (ص)، فإنك إن أخذتها عن بساطة النفس والتواضع فإنك ترى كيف كان (ص) يمازح صحبه ويمازحونه، ويخلق بيئة تكسوها الألفة والمحبة وكسر للحواجز، وإن أخذتها بأنه أراد أن يؤدّب صاحبه فقد فعل ذلك وبأحسن آلية، لم يقم بتقريعه أو توجيه دروس النقد كما يفعل أغلب المعلمين اليوم ولكنه آثر التعليم عن طريق المزحة واللبيب بالإشارة يفهم!

وفي جنبة أخرى من حياته (ص) أنّه مرّ في يوم من الأيام بغلمان يلعبون الرمي فقال ارموا بني إسماعيل فإنّ أباكم كان رامياً.

ثم قال: وأنا مع محجن بن الأدرع ! (أحد طرفي اللعبة)

فأمسك القوم الرمي ..!

قال: مالكم؟

قالوا: من كنت معه فقد غلب.

قال: ارموا وأنا معكم كلكم....

فيا ترى كم كشف التاريخ عن قادة قوم كانوا يلاعبون الأطفال والغلمان؟! القيادة اليوم هي فنّ تمثيل التكشير والتجهّم والترفع والاستعلاء، بينما كان (ص) القائد الأب المتواضع الحنون البشوش الممازح مع كل أصحابه صغارا وكبارا.

مع بالغ الأسف أغفلت كتب السيرة والفقه هذه الجنبة الإنسانيّة في شخصية هذا الإنسان العظيم (إلا النزر اليسير) وفقد الناس نتيجة لذلك المعرفة الخاصة بهذا الإنسان الذي وصفه القرآن الكريم (وإنّك لعلى خلق عظيم) ليصوغوا بها إنسانهم.

رحلة إلى خيبر

بقلم : أ. عيسى الشارقي

منذ أن واجهت الفيل لأول مرة وأنا أتفهم قول أهل العرفان "الألفاظ حجب المعاني"، بل وآمنت أن الألفاظ حجب لا للمعاني الربانية والصفات الإلهية والعوالم الأخروية فقط، بل هي حجب لما لم نعاينه ونجربه ونعيشه من الموجودات الدنيوية والحوادث الواقعية في هذه الحياة، فقد كنت منذ نعومتي وأنا مغرم بالطبيعة وحياة الحيوان، وشاهدت الكثير من الأفلام الوثائقية والعلمية عن الحيوان، وقرأت تفاصيل حياتها، ودرست بعضاً من أسرار حياتها وتكوينها، فقد كنت أعرف ارتفاع الفيل ووزنه ومعادل حجمه وقوته ومزاجه وطريقة حياته، وخصومته للأشجار، وغير ذلك مما يفترض أنه يكوّن عندي صورة واضحة عن الفيل.

"الألفاظ حجب المعاني"،
"ومن ذاق عرف".
اللغة تظل قاصرة عن نقل الحقيقة كما هي في الواقع، مهما كانت الحقيقة بسيطة وساذجة.

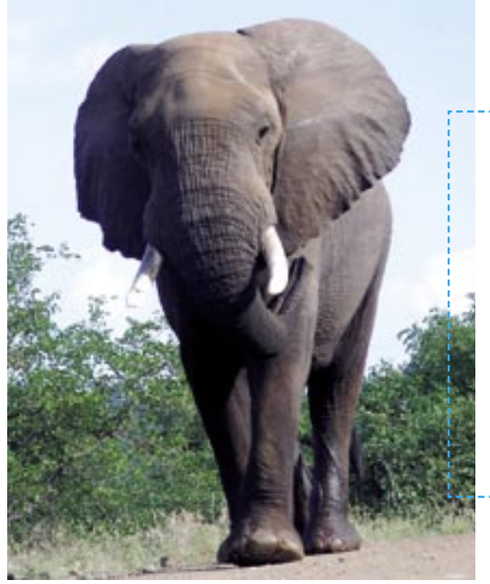

منذ أن واجهت الفيل لأول مرة وأنا أتفهم قول أهل العرفان " الألفاظ حجب المعاني"، ولكن عندما وقفت أمامه وجهاً لوجه، حينها فقط تبين لي مدى عظم خلقه، وضخامة حجمه، وقوة بدنه.

ولكن كل هذا كان حجاباً عن الحقيقة عندما وقفت أمامه وجهاً لوجه، حينها فقط تبين لي مدى عظم خلقه، وضخامة حجمه، وقوة بدنه، وتبين لي كم أنّ الألفاظ بل وحتى الصور والأفلام وسائر أدواتنا المعرفية في نقل المثيل للعقل، كم هي قاصرة عن مطابقة المثال، وأنه قد صدق من قال ما بعد العيان بيان، فاللغة تظل قاصرة عن نقل الحقيقة كما هي في الواقع، مهما كانت الحقيقة بسيطة وساذجة، فلو وصفت ببالغ ما تقدر ملعقة، لما قدرت أن تكون في ذهن السامع دقة الموصوف وكامل صفات وجوده، التي تجعله ماثلاً أمام الذهن كما لو أنك وضعت الملعقة أمام الحواس لتنقلها بكل أبعادها للعقل.

ولعل ذلك يوضح لنا بعضاً من عقدة أهل الكلام وأهل العرفان، في حديثهم عن طبيعة كلام الله وكلام البشر، وكيف يتكلم الله بكلامه الذي يقول للشيء كن فيكون، بألفاظ بشرية قاصرة عن أداء المعنى بل هي حجب عنه، ولم قالوا أن الكلام يكتسب مزيداً من القدرة على البيان وبلاغة التأثير كلما كانت روح المتكلم قوية وبالغة، وأنه إن كان قلب المتحدث حياً يقظاً صادقاً عارفاً اكتسى كلامه بروحه وحمل من قدرة التأثير ما لا يحمله نفس الكلام من متكلم آخر أضعف روحاً وصدقاً ومعرفة وإن تساوت العبارة،، حتى ليبلغ الإيمان بالعبد أن يكون كلامه ككلام الرب يقول للشيء كن فيكون، فقد أرى الله سبحانه رسوله (ص) شبحاً وهو خارج إلى غزوة تبوك، وكأن الرسول (ص) كان يفتقد أبا ذر ويحزنه أن يفوت هذا الصدّيق مثل ذلك الفضل، فلما رأى الشبح علم أنها عطية من عطايا الله له، فما عليه إلّا أن يتمنى كوناً ما لذلك الشبح فقال كن أبا ذر فكان.

"الألفاظ حجب المعاني"، "ومن ذاق عرف"، "وليس المعزّي كالثكول"، إلى غير ذلك من أقوال أرادت أن تعكس ذات التجربة ، هذا ما جعلني حريصاً كلما أمكن على معاينة أكثر ما يمكن من رحلات النبي (ص) وأصحابه الكرام في غزواتهم وجهادهم، فكلما سنحت لي فرصة لزيارة مكة المكرمة وطيبة المدينة المنورة، حرصت على زيارة المواقع التي تقلّبوا فيها، فقاتلوا وقتلوا، وابتلوا وافتتنوا، فأصابوا وأخطاؤا، ليكون المرء أقرب ما يكون لصدق تجربتهم، فيذكر فضلهم وصبرهم وليعذرهم في زللهم عند ما يجد حقيقة عظيم بلواهم وتعبهم وجهدهم، فشتان بين أن تقرأ أن رسول الله (ص) كان يعتزل الناس أياما في غار حراء يتأمل، وبين أن تذهب بنفسك لترى مشقة الصعود، ووحشة الليل، فتعلم أن ما ألمّ بمحمد وأوحشه من الناس أمر عظيم ملك عليه كل قلبه، وإلا لما قدر على الأنس بوحشة ذلك الليل في ذلك الغار القصي عن كل أنسي..

أن تقرأ أن (خيبر) على مسافة ١٦٥ كيلو متراً شمال المدينة،يختلف تماماً عن أن تقوم بنفسك بقطع هذه المسافة، لتكتشف أنها ليست مسافة هينة كما في الكلام، وحتى لو قطعتها بالسيارة وعلى شارع ممهد، فإن الأمر يظل مختلفاً عن مجرد قراءة مقدار المسافة، لأنك ستجد كم قد قطعت من الفيافي والقفار، وكم قد مررت على جبال وصخور ووعورة وحرّ وشمس ووحشة وتعب، هذا وأنت تقطع المسافة بداية سريعة وعلى طريق ممهد، فكيف بمن قد قطعوه مشياً على الأقدام، أو راكبين الجمال، حاملين على ظهورهم وعلى دوابهم مؤونة سفرهم، وعدة جهادهم، تحت الشمس المحرقة، على حذر من العدو، وعلى توتر من استقبال حدث مجهول العاقبة، متوغلين في بلاد الأعداء، فهذه يهود خيبر وهناك أحلافهم من غطفان، هكذا مسيرة (لا تقل عن ٣ أيام وأكثر) فكم قد قعدوا وكم قد قاموا، وما الذي تحدّثوا فيه فيما بينهم، وما الذي كابدوه في طويل ساعاتهم وقد كانوا ألفاً وأربعمائة راجل و٢٠٠ فارس و٢٠ امرأة بينهم صبيّة واحدة!! نعم كتمت النساء

أمرهن ضمن الجمع فلم يُشعر لهن إلّا وهن مع الجيش عشرون امرأة، فلما بلغ النبي (ص) أن معه نساء أرسل إليهن فقال ما أخرجكن؟ وبأمر من خرجتن؟ فقلن: خرجنا نناول السهام ونسقي الناس السويق، ومعنا ما نداوي به الجرحى، ونغزل الشعر ونعين به في سبيل الله. ورأى بينهن فتاة صغيرة، ١١ سنة، فأشار إليها تعالي أنت، ماذا تفعلين هنا؟ قالت أخرج معك، فضحك (ص) وأردفها، فلعله(ص) لم يجد مكاناً أكثر أمنا لها من إردافها خلفه، ولما فتحت خيبر جعل للنساء نصيباً من الغنيمة سهاماً كسهام الرجال المقاتلة، وألبس الصبيّة قلادة من الغنائم.

لم يكن الجهاد فرضاً على النساء، ولكنهن لما بادرن قبل الرسول (ص) مبادرتهن واحتسب الواحدة منهن مجاهداً من الرجال سواءً بسواء، فكل من خرج فله سهم، الضعيف والقوي، من قتل نصف الجيش ومن لم يقدر على قتل أحد، فالنصر إنما يأتي بفعل مجموع العمل المتكامل، مبدأ سارت عليه الجيوش كلها.

سرنا على الطريق المعبّد بين المدينة وخيبر، وهو طريق موحش مقفر، إلّا أنّ مسيرة جيش المسلمين قد أخذت مساراً مخالفاً حينما بلغت حرَّة الرجيع، فقد استدار النبي (ص) بالجيش مغرباً (يساراً) ثم استدار (يمينا) حتى أتى خيبر من أعلاها، فاصلاً بينها وبين أراضي قبائل غطفان حلفاء اليهود وشركائهم في غزوة الخندق، وكانت غطفان تعتزم نصرة خيبر إلّا أنها تخوفت إن هي ذهبت لخيبر أن تخلي أهلها وبلادها للمسلمين، ويعلمون أنهم قد سبق منهم عدوان على المسلمين في الخندق، فآثرت الحياد والترقب وخلّوا بين اليهود والمسلمين.

أما نحن فقد بلغنا قرية خيبر ولا زالت كما هي أرضاً لينة خصبة في ذلك المكان القفر غزيرة الماء مزروعة نخلاً، سألنا عن مكان حصون خيبر فدلنا رجل من أهل باكستان على الجهة وقال لن يسمحوا لكم بالزيارة، ثم مشينا عبر الطرق إلى نهاية البلدة الحديثة ولكن على غير هدى فلا توجد معالم تدل على الأثر، فتوغلنا بين نخيل محترقة لازال الدخان يتصاعد منها، حتى بلغنا نهاية العمران فعدنا أدراجنا، توقفنا أمام مزرعة لأحد أبناء خيبر وسألناه عن مقبرة الشهداء، ويكفي الإطلاق فليس ثمة شهداء غيرهم، ولو كان غيرهم فهو الذي يحتاج إلى إضافة ليعرف، أما شهداء الإسلام مع الرسول فهم سادة يعرفون بمجرّد إطلاق اللفظ، فقال هي على الطريق وقد خلفتموها وراءكم، ولما رأى كثرة أسئلتنا الكاشفة عن حيرتنا، بادر مشكوراً وقال اتبعوني، فأخذنا إلى المقبرة وكانت مجرد سور لا يكشف إلّا عن صخور مبعثرة، لا يدرى أيها قبر وأيها صخرة، قد أخفيت معالم الشهداء في محيطها الصخري، ولأن الشمس قربت تغرب سألناه أن يأخذنا إلى الحصون، فقال: حصن مرحب؟ قلنا نعم، فسار بنا عبر طرق القرية القديمة (التي أخلتها البلدية من أهلها إلى

حصن مرحب - أكبر وأمنع حصون خيبر

المناطق الجديدة) ثم نزل بنا في دروب ضيقة بين النخيل والمزارع في وهدة هابطة، ثم قال ترجّلوا، ثم سار بنا في طرق ضيقة بين النخيل يمينا وشمالا ثم قال هذا هو حصن مرحب وهذه هي عين علي! وتركنا تأدّبا لأنّ معنا نساء، ولكن لا ليذهب لبستانه، بل ليتأمل هو المنظر نفسه الذي جئنا نتأمله ولكن من جهة أخرى، فكأننا قد نبهناه إلى أمر طرأ على عقله للتوّ..

كانت روائح الدخان تنبعث من المكان وأكثر النخيل محروقة بقصد قاصد ولمسافات واسعة، وبعضها لا يزال يتصاعد منه الدخان، وكانت العين مغطاة ومسوَّرة، وحصن مرحب محاط بالسياج وبابه مقفل، كانت القرية (خيبر القديمة) تقع على تله مرتفعة ثم النخيل في أسفلها وكان حصن مرحب يقف شامخاً في جانب الوهدة تحيطه النخيل من جهات ثلاث، والرابعة امتداد لنفس الصخرة التي يقوم عليها.

عندما اقتربنا من أسفل الحصن تبين لنا مدى خصوصية غزوة خيبر، ولماذا كل هذا الحديث عن بطولات خيبر، وتبين لنا مدى الخطأ والخلط الذي يمكن أن يتحدّث به راوٍ لم ير خيبر ولا حصون خيبر، لم نتمكن من رؤية بقية الحصون لأن أكثرها قد تهدّم ولأنها أقل شأناً من هذا الحصن، حصن مرحب الذي دارت عليه أمّ المعارك وكان سقوطه فاتحة لتساقط الحصون واستسلامها، حصن مرحب، وهذا هو اسمه الشعبي عند أهل خيبر اليوم، وليس اسمه التاريخي، بناء من الطين والصخر ليس بالضخم كالقلاع وليست هذه هي سرّ منعته، ولكنه يقع على صخرة منتصبة بارتفاع بناء من ٣-٤ طوابق شبه ملساء، تواجهك وجهاً لوجه من كل الجهات، وليس لها مدخل إلّا من جهة الحصون التي وراءه، والمساكن التي بعده، في مدخل صعب وعر محصّن بالطبيعة، فإذا ما تقدّم جيش المسلمين نحو الحصن فهو مكشوف لليهود من كل الجهات، وبمقدورهم أن يرموه بالصخور والسهام والنيران، ولا يوجد مدخل ولا مرقى، ولا يملك المسلمون يومها سلاحا مضادا للدروع، فليس إلا الاقتحام والالتحام بأسلحة فردية، ولو رأيت بأم عينك لدهشت كيف لم يهزم المسلمون؟ فسهام اليهود تصل للمسلمين قوية هاوية، وسهام المسلمين لا تصل لليهود، وإن وصلت ففي أضعف حالاتها، والمسلمون مكشوفون واليهود من وراء جدر، كان ميزان القوى في الميدان يرجح كفة خمسة من مقاتلة اليهود على مائة من المسلمين والحال هذه.

تقدّم المسلمون نحو الحصن بقيادة محمود بن مسلمة فرضخه اليهود بالحجارة فقتلوه مهشما، فجبن أخوه محمد بن مسلمة وفرّ وقال لم أر يوماً كهذا اليوم، وقد كنت ألومه على جبنه وفراره لو لم أر الحصن، ولكن لمّا رأيت الحصن أعذرته، إذ ليس ثمة حيلة أمام الحصن إلّا مواجهة الموت وبدون جدوى، فماذا عساك أن تفعل وليس أمامك إلّا صخرة شامخة صماء ملساء قائمة باستقامة إلى ١٥ متراً وعدّوك فوقها يرميك بكل ما لديه، ولقد أعذرت أبا بكر وعمر والمسلمين حينما هاجما الحصن فأجهدا وأجهد المسلمون ولم يكن فتح، فإلى اليوم لو أعيد المشهد وبنفس أدوات ذلك الزمان لحدث ما كان قد حدث.

استدرنا حول الصخرة من جهاتها كلها، إنها أشبه بشبه جزيرة يحيطها البحر من كل الجهات إلّا جهة واحدة هي في نفسها كالحصن في الارتفاع والانتصاب، ترى كيف اقتحم المسلمون هذا الحصن المنيع وبدون آلة؟!

كان المسلمون يعلمون صعوبة خيبر وقوة تحصينها، ولعلك تكتشف هذا في حداء عامر بن الأكوع حينما طلب منه النبي أن يحدو لهم، فالحداء يؤنس النفس العربيّة وليس الإبل العربيّة فقط فحدا لهم

والله لولا الله ما اهتدينا

ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فأنزلن سكينة علينا

وثبّت الأقدام إن لاقينا

ولعلك تفهم ذلك من حاجة المسلمين للدفع المعنوي في كلمات رسول الله (ص) إذ أنه نزل على خيبر ليلاً ولم يُعلم أهلها، فخرجوا عند الصباح إلى عملهم بمَسَاحيهم فلما رأوه عادوا وقالوا: محمد والخميس! (يعنون الجيش) فأدبروا هرباً، فقال النبي (ص): الله أكبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم (فساء صباح المنذرين).

كانت توجيهات النبي (ص) للمسلمين بعد مقتل محمود بن مسلمة ورهبة أخيه وتراجع المسلمين، أن قال: لا تمنّوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم، فإذا لقيتموهم فقولوا اللهم أنت ربنا وربهم، نواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تقتلهم أنت، ثم قال: الزموا الأرض جلوساً، فإذا غشوكم فانهضوا وكبّروا، الأمر الذي يدل على أنّ اليهود كانوا يشنّون هجمات بين الحين والحين على المسلمين ثم يعودون لحصونهم.

بقي الحصار ١٧ ليلة والمسلمون لا يجدون حيلة، وكأنما قد تأثر النبي (ص) لضعف أداء المسلمين، فقال لأبعثن غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله لا يولي الدبر، فتويت عزائم المسلمين وعلموا أن معركة الغد مؤزرة بالنصر المحتّم، وتشوّقوا أن يكون كل منهم صاحب حظها، فلن يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وهم يؤمنون بأنّ النصر من عند الله، وليس بقوّتهم وجهدهم فما هي إلا سبب للنصر ليس إلا، وإذا أراد الله شيئا يسّر أسبابه، فلم يقعدهم عجزهم عن الفتح بالأمس عن الثقة بأنهم قادرون على النصر غدا، خاصة وهم لم يقصروا في بذل الجهد والجهاد، ولكن الله أرادها لبطلهم الأول بلا منازع، فلما كان من الغد نادى (ص) علياً (ع) وهو أرمد شديد الرمد، فقيل له إنه أرمد، فلما حضر قال يا رسول الله إني أرمد كما ترى وما أبصر موضع قدمي، فأخذ (ص) كفه وقرأ عليها ثم نفخ في عينه ووضع كفه على العين المصابة.

عقد له اللواء ودفع إليه الراية فقال على ما

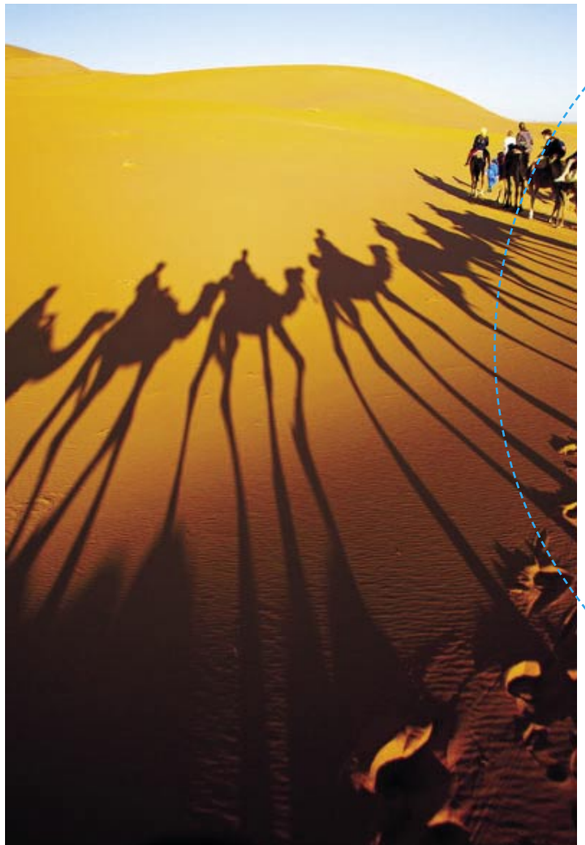

> أن تقرأ أن (خيبر) على مسافة ١٦٥ كيلو متراً شمال المدينة،يختلف تماماً عن أن تقوم بنفسك بقطع هذه المسافة، حتى لو قطعتها بالسيارة وعلى شارع ممهد، فإن الأمر يظل مختلفاً عن مجرد قراءة مقدار المسافة فكيف بمن قد قطعوه مشياً على الأقدام، أو راكبين الجمال، حاملين على ظهورهم وعلى دوابهم مئونة سفرهم.

مقبرة شهداء غزوة خيبر

باب حصن مرحب

أقاتلهم يا رسول الله؟ قال على أن يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد حقنوا دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله تعالى ، فخرج بها يهرول لم يلتفت وراءه والمسلمون يسارعون لإدراكه، حتى ركزها في رضم (حجارة مجتمعة بدون بناء) من حجارة تحت الحصن.

لقد فتح المسلمون قبل حصن مرحب حصوناً لليهود في خيبر ولكن حصن مرحب كان صعباً، فخرج مرحب يتحدى وقد جمع عليه سلاحه قائلاً:

قد علمت خيبر أني مرحبُ

شاكي السلاح بطل مجرّبُ

أطعن أحياناً وحينا أضربُ.

فبرز له عليٌ متقدماً جيش المسلمين والمسلمون من خلفه، كما تقدّم مرحب وبقية من أبطال اليهود من خلفه، تفصلهم عنه مسافة، وحينها أجابه عليّ برَجَز على رَجَزه قائلاً:

أنا الذي سمّتني أمي حيدرة

كليث غابات شديد القسورة

أكيلكم بالصاع كيل السندرة

والسندرة ضرب من الكيل غِراف جِراف، فبادره على بضربة فَقَدَّ الحجر الذي على رأسه والمغفر الذي على وجهه وقدَّ رأسه حتى أصطك السيف بأسنانه، فكانت ضربة منكرة لم ير الناس مثلها، ففزع اليهود وتراجعوا نحو الحصن، فتبعهم عليٌ والمسلمون من خلفه في هجمة حامية قوية المعنى، فبلغ عليّ الباب باب الحصن وهو يقع في جهة حصينة فرماه اليهود بالحجارة من فوق فاقتلع الباب ببسم الله، وكأنما هو يستحضر قول الرسول (ص) الآنف "وإنما تقتلهم أنت" فأحدث ذلك الأمر الغريب فوق العادة مزيدا من الرعب في نفوس اليهود وانهزمت نفوسهم فتقهقروا وأطبق عليهم جنود الله من أبطال المسلمين متخذين الباب متراساً حتى غشوا أهل الحصن وسقط حصنهم المنيع ثم تهاوت خيبر واستسلمت تباعاً .. وفرح المؤمنون بنصر الله.

لم يتجاوز قتلى المسلمين يومئذ الستة، منهم الشهيد محمود بن مسلمة (رض)، ومنهم راع لليهود أسره المسلمون في الطريق فجاءوا به للرسول (ص) يكلمه، فقال له الرجل إني آمنت بك وبما جئت به فكيف بالغنم فإنها أمانة، وهي للناس الشاة والشاتان وأكثر من ذلك، قال أحصب وجوهها ترجع إلى أهلها، فأخذ قبضة من حصباء أو تراب فرمى بها وجوهها فخرجت تشتد حتى دخلت كل شاة إلى أهلها، ولا غرو فلا ينبئك مثل خبير، ثم تقدّم إلى الصف فتعمّد اليهود التركيز عليه لأنه قادر على كشف أسرارهم فأصابوه بسهم فقتلوه، فاستشهد ولم يصلّ لله سجدة قط!!

إنّ عدد قتلى المسلمين هو في حد ذاته آية عجيبة، ومن رأى حصن مرحب أيقن بذلك، فكيف وهي حصون عدة؟!

(ولكن وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى).

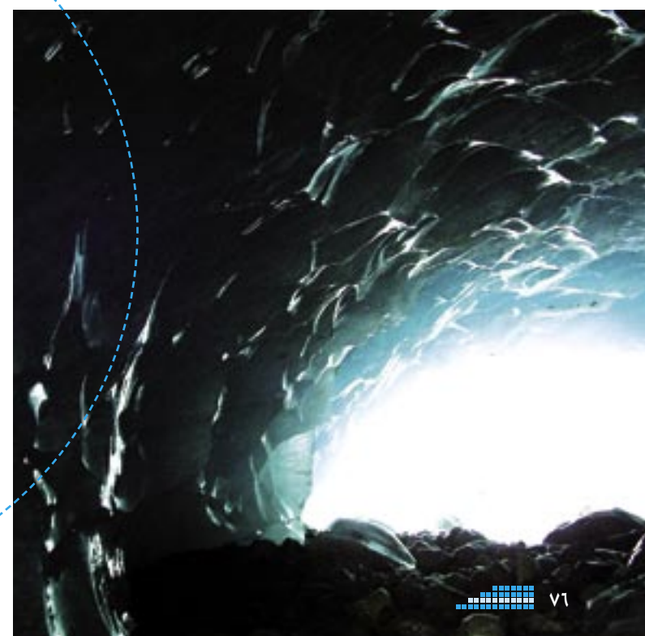

شتان بين أن تقرأ أن رسول الله (ص) كان يعتزل الناس أياما في غار حراء يتأمل، وبين أن تذهب بنفسك لترى مشقة الصعود، ووحشة الليل، فتعلم أن ما ألمّ بمحمد وأوحشه من الناس أمر عظيم ملك عليه كل قلبه، وإلا لما قدر على الأنس بوحشة ذلك الليل في ذلك الغار القصي عن كل أنسي..

حصن مرحب محاط بمزارع النخيل

تساقطت علينا حبّات من المطر، ولم نتمكن من صعود الحصن ودخوله لأنه كان مسيّجاً، وغربت الشمس ولم يكن المكان مسكوناً، حيث أخرجت البلدية كلّ الناس من حول الحصون وأخلت البلدة القديمة، وأحرق أحد النخيل، ونشرت الصحف رغبة أمير المدينة بإعادة إحياء معالم تاريخ المدينة العظيم، ولعل كل ذلك مقدمة لهذا الإحياء، إنّ مثل هذه المعالم هي أمانة تاريخية لا بل هي كنز من كنوز الإسلام، ومركّب من مركّبات روحه وتاريخه، وأثر من آثار التضحيات الجسام التي بذلها الصحابة الكرام مع رسول الله (ص)، والتي بفضلها أصبحنا نحن ذرية قوم مسلمين.

عدنا أدراجنا نحو مقبرة الشهداء حيث لا معالم تذكر إلاّ أرضاً مسورة، فدعونا الله لشهدائنا الأبرار، وأدينا لهم واجب الشكر، وقرأنا لهم الفاتحة، فقد صبروا وجاهدوا وبذلوا في سبيل الدين الحنيف، يوم كان الدين واحداً والقلوب متوحدة، والهدف واحد، الله ما أحلى تلك الأيام على شدّتها، وما أقبح أيامنا هذه على رخائها، فالدين الواحد غدا مذاهب، والقلوب تفرقت، والأهداف اختلفت، وكأن الله لم يناد فينا (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران:١٠٥).

رجع النبي والمسلمون بالظفر، بعد ما عقدوا صلحاً مع يهود خيبر على نصيب من الغلة للمسلمين، فقد تصالح اليهود بعد ما يئسوا من النصر، وفي خيبر حرّم الرسول(ص) زواج المتعة، ولعله(ص) لم يرد أن يتلوث المجاهدون بدُنيا اليهود بعد ما عقد الصلح، وهم أهل بيعة الرضوان أهل الحديبية قد نزلت فيهم قبل شهر (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً) (الفتح:١٨).

والصلح دائماً تصحبه أخطار ومفاسد، وهؤلاء اليهود أهل غدر، فلو استمتع المسلمون بنسائهم ما يدريك ماذا يكون من غدرهم، ولابد أن ذلك سيؤثر في روحانية المؤمنين ويضعف تعلقهم بالآخرة في تلك الساعة، رجع النبي (ص) بالمسلمين أتقياء ظافرين قد أرهبوا قريشاً وسائر العرب الذين كانوا يتمنون أن تكون الدائرة لليهود على المسلمين وأن تمنعهم حصونهم دونهم.

ورجعنا نحن ليلاً نحو المدينة، وقطعنا الطريق الموحشة ليلاً كما قطعناها نهاراً، لنعيش بعض ما عاشه الصحابة المجاهدون في ليلهم ونهارهم، وشتّان، عدنا لنرحل إلى سادة مجاهدين آخرين لا زالت قبورهم حول المدينة شاهداً على جهادهم وتضحياتهم العظيمة.

ملاحظة: جميع صور حصن مرحب وصورة مقبرة شهاء خيبر هي صور حديثة قام بإلتقاطها أحد أعضاء جمعية التجديد الثقافية.

قصة:

أنتَ الأب وأنتَ العم

بقلم: أ. أحمد عباس

خرج زيد بن حارثة مع أمّه سُعدى لزيارة أهل لهم في اليمن، فما أن حلا ضيوفًا حتّى أغارت عليهم خيل نهبت الأموال وساقت الإبل وسبت الذراري، وكان صاحبنا زيد من ضمن الأسرى وكان عمره حينئذ ثمان سنين.

عُرض زيد للبيع في سوق عكاظ، فاشتراه سيد من سادات مكة وثري من أثريائها حكيم بن حزام بن خويلد بأربعمائة درهم، واشترى معه غلمان آخرين، فلمّا رجع إلى مكة جاءت عمته خديجة بنت خويلد زائرة مسلمة عليه بسلامة الوصول فأراد أن يتحفها بهدية فعرض عليها ما

بكَيْتُ على زيْدٍ ولم أَدْرِ ما فَعَلْ
أَحَيٌّ يُرَجَّى أم أتى دونَه الأَجَلْ
تذكِّرُنيه الشمسُ عند طلوعِها
وتُعْرِضُ ذكراهُ إذا قاربَ الطَّفَلْ

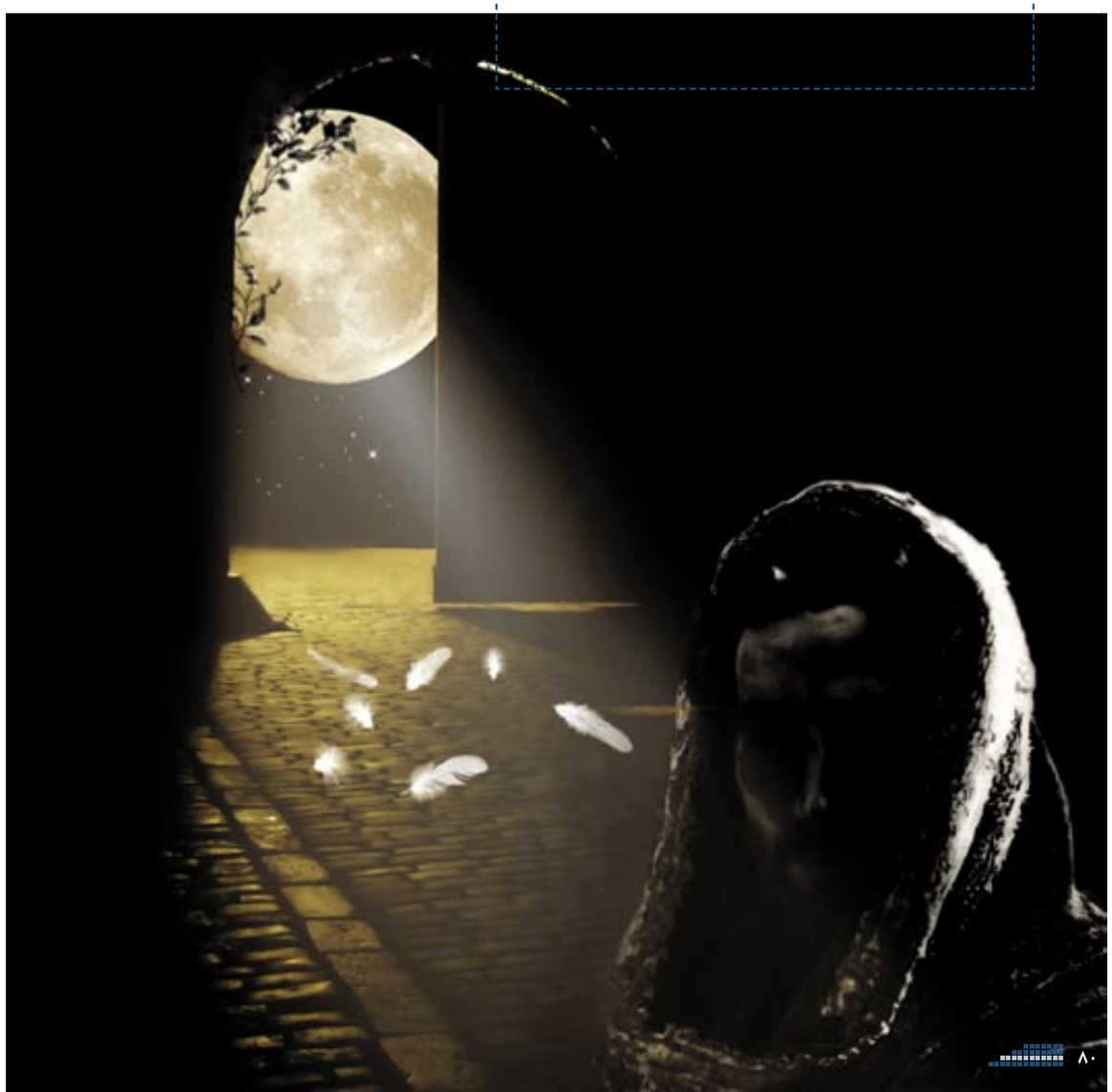

اشتراه من الغلمان لتختار من تشاء، فتفرست في وجوههم فاختارت زيدًا لأنها توسمت في وجهه النجابة والنباهة والذكاء. فلمّا أكرمها الله بالزواج من محمّد (ص) لم تجد هدية تقدمها إليه أغلى وأنفس من زيد فأهدته إليه.

كان أهل زيد في غمّ وهمّ وحزن، يتلقطون الأخبار ويسألون القوافل الراجعة ويطلبون من القوافل المسافرة أن تتقصّى ، وكان أبوه يناجيه صباح مساء يردّد:

بكَيْتُ على زيْدٍ ولم أَدْرِ ما فَعَلْ
أَحَيٌّ يُرَجَّى أم أتى دونَه الأَجَلْ
تذكِّرُنيه الشمسُ عند طلوعِها
وتُعْرِضُ ذكراهُ إذا قاربَ الطَّفَلْ

هذا فعْلُ المعاملة الحسنة في القلوب، فبدل أن يعيش حرًّا مع أبويه آثر زيدٌ أن يظلّ خادمًا عند محمّد (ص) لأنّ محمّدا (ص) -وقبل نبوّته- كان لخادمه ولَمن ولي أمرَه ولكلّ لصيقٍ به الأبُ الرحيم والعمُ الشفيقُ والمُحبُ الحريصُ والخليلُ المُواسي.

وشاء الله أن يلتقي نفر من قوم زيد بزيد وجهًا لوجه في مكة في موسم الحج فعرفهم وعرفوه، وكلمهم وكلموه، فطاروا بالخبر المفرح إلى أبويه، وقالوا إنَّ ابنكم زيداً عند سيّد من سادات مكّة يدعى محمّد بن عبد الله.

ظنّ الأهل أنَّ هذا السيد كسائر السادات لن يردَّ زيدًا إلّا بما نفس وغلا، فاستدان أبوه وأهله من النّاس مالاً كثيرًا بأمل أن يفدوه، ثمَّ توجّه الأب وأخوه كعب إلى مكة، فلمّا بلغاها قصدا محمّد بن عبد الله (ص) فدخلا عليه وقالا: يا بن عبد المطلب، أنتم جيران الله، تفكّون العاني، وتطعمون الجائع، وتغيثون الملهوف، وقد جئناك في ابننا الذي عندك وحملنا إليك من المال ما يفي به، فامنُن علينا وفادِه لنا بما تشاء.

فقال محمّد: ومن ابنكما الذي تعنيان؟

قالا: غلامك زيد بن حارثة.

فقال: وهل لكما فيما هو خير من الفداء؟

فقالا: وما هو؟

فقال: أدعوه لكم فخيرُوه بيني وبينكم فإن اختاركم فهو لكم بغير مال، وإن اختارني فما أنا والله بالذي يرغب عمّن يختاره.

فقالا: لقد أنصفتَ وبالغت في الإنصاف.

فدعا محمدٌ زيدًا وقال: مَن هذان؟

قال زيد: هذا أبي حارثة بن شرحبيل، وهذا عمّي كعب.

فقال محمد: قد خيّرتك؛ إن شئت مضيتَ معهما، وإن شئت أقمتَ معي.

فقال زيد بلا تردّد: بل أقيم معك، ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، أنت الأب وأنت العم...

فقال أبوه: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على أبيك وأمّك؟

فقال زيد: إنّي رأيت من هذا الرجل شيئاً وما أنا بالذي أفارقه أبدًا.

فلما رأى محمّد (ص) من زيد ما رأى، أخذ بيده وأخرجه إلى البيت الحرام ووقف عند الحِجْرِ وقال: يا معشر قريش اشهدوا أنّ هذا ابني يرثني وأرثه، فطابت نفس أبيه وعمّه وخلّفاه عند محمّد (ص) وعادا إلى قومهما مطمئنَّيْ النفس مرتاحَيْ البال. ومنذ ذلك اليوم أصبح يدعى زيد بن محمد.

ولمّا بُعث محمّد (ص) بالرسالة كان زيد من أوائل من دخل في الإسلام، ولمّا قصد رسول الله (ص) الطائف بعد وفاة أبي طالب كان زيد ظلّه الذي لا يفارقه، وظلّ يدعى زيد بن محمّد حتى نزل قوله تعالى: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) فعادَ يُدعى زيد بن حارثة.

هذا فعْلُ المعاملة الحسنة في القلوب، فبدل أن يعيش حرًّا مع أبويه آثر زيدٌ أن يظلّ خادمًا عند محمّد (ص) لأنّ محمّدا (ص) -وقبل نبوّته- كان لخادمه ولَمن ولي أمرَه ولكلّ لصيقٍ به الأبَ الرحيم والعمَّ الشفيقَ والمُحبَّ الحريص والخليلَ المُواسي، ثمَّ أخذتْ زيداً تلك المعاملةُ الحسنة لتُدرجه من أسبق المصدّقين بمحمّد (ص) الدّاخلين في دينِه، فهل نتّخذ رسولنا الكريم أسوةً حسنة في علاقاتنا مع الآخر مّمن حولنا؟

لا سيّما من هم دوننا من خدم وأُجراء وأبناء وتلاميذ ومرؤوسين، لنكسب قلوبهم، ونكون نعم الآباء والمعلّمين والرُعاة لمن تولّيناه.

البشير
الذي صيّروه نذيراً

قسم الدراسات والبحوث

يقول غاندي: "بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول وجدت نفسي أسفا لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة"! ويقول بعضنا بعد قراءة مقال من الإنترنيت، أو فصل من كتاب، أو كتاب عن رسول الله (ص): اكتفيتُ، عرفتُ محمداً!! وقد يملّ الكثير من إعادة قراءة السيرة النبوية عندما يتقدّم به العمر لاعتقاده أن ليس ثمّة ما يضيف إلى معلوماته بعدما درسها في كتابه المدرسي رغم ما تحمله مناهجنا من مغالطات وأخطاء تاريخية وما يتّسم به بعضُها من فتور وجفاف وسطحية في الطرح والشرح.

> إنّك تصل الرحم، وتصدق الحديث، وتكسب المعدم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

إنّ حقّ محّمد (ص) أن يُقرأ في كل عصر بروح جديدة متجدّدة كما القرآن، فكما لا يمكن الاكتفاء بما قاله المفسّرون لفهم آيات القرآن الكريم قبل عشرين عاماً، كذا لا يمكن أن نكتفي بما قيل عن محمد (ص) قبل خمسين أو عشرين سنة، بل ولا حتى قبل خمس سنوات، ولا الركون إلى ما قاله المؤرّخون والكُتّاب، وإنّما حقّ هذا النبيّ الخاتم أن يقرأه الجميع فرداً فرداً لا بقصد الدعوة والتبشير – كما هو حاصل اليوم – وإنما بنية الاهتداء والاقتداء على المستوى الشخصي أولاً وأخيراً فإذا تشرّبت روح القارئ بروحه (ص) وسرى حبّه في قلبه فما يرشح عنه بعد ذلك من خلق وسلوك سيكون نوراً على نور.

حقّ هذا النبي الهاديّ أن نقرأه بعين الضالّ الباحث عن الهدى، لا نملّ من قراءة سيرته كما لا نملّ من أداء صلواتنا اليومية لأن لكل صلاة مشاعر خاصة لا تتكرّر قبل ولا بعد، فمحامد محمّد (ص) كالمعاني والمشاعر المصاحبة لكل صلاة تتنوّع رقياً وسمواً، بحسب روحانية وانفتاح القارئ على آفاق معانيه (المعنوية) التي لا يحدّها حدّ .. محمد (ص) – كتاب الإنسانية المفتوح أبداً – منفتح على كل الآفاق والعوالم بشرط أن لا يكون قارئه محنّط الفكر، ضيّق الأفق، وإلّا فلن يعدو أن يكون – بالنسبة له – سوى مجموعة من الحوادث التاريخية والغزوات التي يحفظ تفاصيلها ولكن لا يجد لها انعكاساً في تطوّر حياته، ولا يسمع صداها في روحه.

كثيُرنا يعلم أنّ محمداً (ص) قبل البعثة كان ذا خصال حميدة جمّة، ويعلم أنه كان يعتكف في الغار متفكّراً طلباً لمعنىً مفقود وبحثاً عن الحقيقة، ونعلم أنّه كان الصادق، والأمين، ولكن الذي لا نعرفه أن محمداً (ص) لم يكن يتوقّع يوماً أن يكون هو النبي المرسل، حتى أنه عندما نزل عليه الوحي برسالة "اقرأ" رجع إلى خديجة ترجف بوادره وقال لها: أيْ خديجة مالي؟ لقد خشيت على نفسي!!

وبقى على هذه الحال أسبوعاً لا يقرّ قرارُه رغم تأكيد زوجته خديجة عليه بأنّ الله لن يخزيه أبداً، وتذكيره بخصاله التي تميّز بها: "إنّك تصل الرحم، وتصدق الحديث، وتكسب المعدم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"، ورغم ما طمأنه به ورقة بن نوفل، بقي حائراً إلى أن جاءه الذي جاءه بحراء ثانيةً بينما هو يمشي فسمع صوته يملأ الأفق:

يا محمّد .. أنت رسول الله للناس، وأنا رسول الله إليك!!

محمد (ص) معلّم الإنسانية عندما يأتيه الوحي لا يصدّق أن يكون هو رسول الله، ولم يكن ليخطر بباله أن يُبعث نبياً، وهذا هو سرّ عظمته (ص)، بينما كان في قريش وغير قريش من أهل الكتاب ممن كان يترقّب نبياً في آخر الزمان وكان يعدّ نفسه ليكون ذلك النبي مثل أبي عامر الراهب، الذي عادى محمداً أشدّ العداء بعد ما بُعث نبياً لظنّه أنه أحقّ منه بالرسالة!!

كما نعلم أنّ علياً (ع) أول فتى آمن بمحمد (ص)، ولكن الذي لا نعرفه هو الطريقة التي دعا بها محمّدٌ (ص) علياً (ع) وما فيها من احترام الداعي (ص) لحرّية فكر المدعوّ، والنضج العقلي الذي عبّر به المدعو رغم حداثة سنّه. فعندما رأى عليّ محمداً (ص) يصلي سأله عمّا يفعل، فقال: أصلي لله، ثم أخبره عن الإسلام، وسأله: هل لك أن تسلم؟ فقال علي: "دعني أفكر"، وكان عمره يومئذ عشر سنوات (!) فتركه يفكّر ولم يكرهه على الإيمان، كما أن علياً (ع) الذي تربّى في بيت محمد (ص) لم يؤمن حباً في محمد وكرامة لمن ربّاه، بل آمن بعد تفكير وتأمل واقتناع .. فجاءه في الغد وطلب منه أن يعيد عليه ما أخبره بالأمس، فأعاد عليه، فقال: "أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله".

ولقّنونا أنّ الدعوة المحمدية بدأت سرّاً، ولكن الذي لم نعرفه أنّ محمداً المصطفى (ص) كان يصطفي أصحابه في بداية الدعوة ولم يُخفِها، حتى قيل أنه أجّل مبايعة عمر بن عبس ما يناهز خمسة عشر عاماً.

كان النبيّ (ص) يصلّي في الحرم، أيام الموسم من أيام الحصار، فجاء عمر بن عبس وسأل عنه (ص)، قالوا له هو هذا الذي يصلّي، فذهب إلى رسول الله (ص) فقال له: من أنت؟ قال: أنا نبي، قال: ما نبيّ؟ قال: أرسلني الله، قال: وبما أرسلك؟ قال: بصلة الأرحام وكسر الأصنام، قال: ومن معك على ذلك؟ قال: حرّ وعبد، والتفت يميناً وشمالاً فرأى أبا بكر وبلالاً، فنظر إلى جهتهما وأشار إليهما، وقد كانا يتحدّثان معاً بمحبة ووئام، فتأثّر بالمنظر وقال: إني متّبعك .. قال له: "لا تصلح أن تكون معي .. ولكن ارجع بلدك حتى إذا علمت أني ظهرت على الكعبة فأتني"، فذهب وبعد خمسة عشرة سنة ظهر الأمينُ على الكعبة وخلّصها من استغلال جور الشرك واستبداده وفساد قيَمِه، فأتاه فبايعه على الإسلام.

ونعلم أنّ الدين الذي جاء به محمد (ص) دين يسر، وتجاوز وتخفيف وجوهر وبساطة وتهذيب وتفاعل ومرونة ورحمة، ولكن لشدّة ما تشدّد رجال الدين في تطبيق الأحكام بلا أدنى مرونة أو مراعاة لحالة السائل كدنا ننسى أنّ الله يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر. جاءه رجل وقال له: أجنبتُ وأنا صائم، فقال رسول الله (ص): هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا ..

قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا ..

قال: هل تجد إطعام ستين مسكيناً؟ قال: لا ..

فقال له اجلس، فخرج النبيّ (ص) ثم أتى بعذق فيه تمر فقال له: خذ هذا فتصدق به .. فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فو الله ما بين لابتيّها أهلُ بيتٍ أفقر من أهل بيتي، فضحك رسول الله (ص) ثم قال: أطعمه أهلك.

فحتى لا تتوارى هذه المواقف المحمدية عن أبصارنا وأسماعنا دون التفات منّا إلى انعكاسها في حياتنا، لابدّ لنا من العودة إلى كتب التأريخ لنستخرج سيرة محمد (ص) النقية البيضاء من أمثال هذه الحوادث وغيرها من مصادرها قبل أن تعبث بها أيدي المؤرخين والساسة والدعاة فيبرزوا ما يتّفق ونهجهم ويطمسوا ما لا يتّفق مع أهوائهم، حتى غابت حكمة محمّد في اختيار أتباعه، وبعد نظره في الدعوة، ومرونته في تطبيق الأحكام، وسماحته، وبشاشته، ومزاحه، وحلّ محلّه فقهُ التكفير والتجريم، وغلظةُ التجهم والعبوس، فصيّروا البشير نذيراً.

حقّ هذا النبي الهاديّ أن نقرأه بعين الضالّ الباحث عن الهدى، لا نملّ من قراءة سيرته كما لا نملّ من أداء صلواتنا اليومية لأن لكل صلاة مشاعر خاصة لا تتكرّر قبل ولا بعد.

قصة :

ولدت من جديد ..

بقلم: أ. أحمد بن خميس

جلس فَضالة١ على جبل من جبال مكة مذهولًا، ماذا أسمع؟ أهذا أبو سفيان ينادي؟ وبم ينادي؟ قام من مجلسه واتجه نحو الصوت، أرهف سمعه، تناهى إليه الصوت واضحًا: "يا معشر قريش هذا محمّد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. دنا منه أمسكه من ذراعيه هزّه هزًا عنيفًا وقال: أبو سفيان هذا؟

- نعم يا فَضالة، هذا هو أبو سفيان بلحمه ودمه.

- ماذا تقول؟

- هو ما سمعت لا أملك لكم إلا هذا؟

- وجيش قريش؟

- ذهب بددا؟

- وزعماء قريش؟

- منهم من فرَّ ومنهم أسلم، ومنهم من استجاب لندائي وسمع نصيحتي فدخل بيتي أو أغلق عليه بابه وكفَّ عن المواجهة، ومنهم من اعتصم واستجار بالبيت.

- إذًا انهار كلّ شيء.

- نعم انهار كلّ شيء، تفرقت الجموع، وأسقط ما في أيدي النَّاس.

اسودت الدنيا في ناظريّ فَضالة، تساءل أهكذا سقط كبرياء قريش وتمرغ أنفها في الرغام؟ أهكذا انهارت منعتها؟ أين تعززها يوم أقسمت أن لا يدخلنَّ محمّد عليها مكة عنوة؟ لقد ذهب قسمها أدراج الرياح وهذا زعيمها أبو سفيان يدعوها للاستسلام، وما يملك خيارًا غيره. مرّ شريط الذكريات سريعًا، وجد فيه أنسًا وسلوة تنسيه ما يرى ويسمع طافت صور الزعماء الذين وقفوا سدًا منيعًا دون دعوة محمّد بمخيلته، استرجع كلامهم، وما لبث أن أفاق من غفوته، تجهم وجهه لقد قتلوا، وأتاهم حينهم من حيث لم يحتسبوا.

أخذ يهتف في حالة هستيرية أين أنت يا أبا الحكم أين أنت يا أمية بن خلف، أين أنت يا عتبة، يا شيبة يا ابن أبي معيط هذه جيوش محمّد قد ملأت السهل والجبل، وأحاطت بمكة إحاطة السوار بالمعصم. لم يسمع إلا صدى صوته يتردد بين الشعاب، تذكر أنَّهم دفنوا في قليب بدر بعيدًا عن الأهل والأوطان، فترقرقت الدموع في عينيه، سالت على وجنتيه، انتبه: أتبكي يا فضالة كما تبكي الأمة السليبة؟ هكذا خاطب نفسه، هل تحقق الدموع هدفًا أو تبني عزًا أو ترجع مجدًا عجزت السيوف عن المحافظة عليه؟ كفكف دموعه بعجل، استحى من نفسه، يا للعار إن رآني أحد، تلفت يمينًا وشمالاً مذعورًا، لم يجد أحدًا، سكن قلبُه، شعر بأنس يتدفق على قلبه لّما علم أنَّ سرّه لم تسترقه عين ولا أذن، عاهد نفسه أن يبقى رجلاً جلدًا لئلا يشمت به شامت وتمسي دموعه أحدوثة النّاس في المجالس، حاول أن يستنهض نفسه ويشحذ همته حتّى لا يرتدَّ إليه ضعفه من جديد نادى عقله الباطن: أين شجاعتك يا فَضالة؟ أين مواقفك البطوليّة؟ أين غدواتك وروحاتك، إذا كنت تتأسى بالماضين فقد أدوا ما عليهم، وعليك أن تؤدي ما عليك، قف في وجه محمّد. ماذا؟ قف في وجه محمّد، انتبه مذعورًا، أؤدي ما عليّ؟ أقاتل محمّدًا؟ لا، لا ليس هناك عاقل يقول بهذا، أو يفكر فيه، ولو كان لقريش أمل في النصر لكان يوم كانت قويّة ومحمّد ضعيفًا، أما وقد انقلب الزمان وتغير الميزان فانتصار قريش مستحيل، ومواجهة محمّد انتحار، نعم انتحار. أطرق برأسه إلى الأرض وتساءل إلى متى سأبقى منكفئًا هنا، صاح مستنكرًا: إنَّه الجبن بعينه يا فَضالة أن تبقى بعيدًا ومحمّد يبسط جناحيه ويمدّ سلطانه على مكة بيتا بيتًا، لم لا تذهب لترى

ما يحدث؟ محمدّ يصول ويجول في مكة وأنت قابع هنا تمسح دموعك، قمّ وانظر ماذا يجري، وإذا كنت حانقًا على عجز أبي سفيان وعازفًا عن الذهاب لداره لتأمن، فلم لا تذهب إلى الحرم أليس الحرم آمنًا بضمان محمّد؟ قام من فوره، اتخذ طريقه نحو الحرم، لاحت له طلائع جيش محمّد، دنا أكثر سمع النّاس يتحدثون أن عكرمة بن أبي الحكم وصفوان بن أميّة وسهيل بن عمرو وحِماس بن قيس أعدوا العدة لمنازلة محمّد بِالخَنْدَمَةِ، ولكنَّهم فروا يسابقون الريح مع أول مواجهة. واصل طريقه التقى برجلين استقصاهما الخبر؟

- لقد فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة على جناحي نعامة عندما واجهوا خالد بن الوليد.

- وما خبر حِماس، لقد سمعت أنّه جمع السلاح، وأعدَّ العدة؟

ضحكا حتى بدت نواجذهما وقالا: خبر حِماس مضحك مبكي.

- بالله عليكما خبراني

- كان حماس يمني زوجته أن يخدمها أحد أسرى المسلمين، فلمّا فرّ صفوان وفرَّ عِكرمة وأصيب من جمعهم اثني عشر رجلاً، قال: "انجُ سعد فقد هلك سُعَيْد"، وأسرع إلى بيته وطلب من زوجته أن تحكم غلق الباب فذكرته بوعده، فقال:

إنّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الْخَنْدَمَهْ

إذْ فَرّ صَفْوَانٌ وَفَرّ عِكْرِمَهْ

وَاسْتَقْبَلَتْنَا بِالسّيُوفِ الْمُسْلِمَهْ

يَقْطَعْنَ كُلّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ

ضَرْبًا فَلاَ نَسْمَعُ إلاّ غَمْغَمَهْ

لَهُمْ نَهِيتٌ حَوْلَنَا وَهَمْهَمَهْ

لَمْ تَنْطِقِي فِي اللّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ

- لقد ذهب عزّ قريش إذن.

- نعم، ما لقريش عزّ بعد اليوم

استولى الخبر على عقله وقلبه، شغله آلمه أمضّه ولكنّه لم يثنه عن مواصلة المسير، دخل البيت الحرام، وجد الأصنام تجذ وتكسَّر لتجمع وترمى خارج الحرم، والهتاف يعلو "جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا"، شعر بقشعريرة وهزّة عنيفة وقال: أيصنع هكذا بالآلهة؟ لم يبق لك عزًّ يا قريش إلا وقد أريق.

رمى فضالة ببصره بعيدًا نحو البيت، ماذا أرى؟ محمّد؟!! محمّد يطوف بالبيت؟ نعم إنّه محمّد بعينه، هذه فرصتك يا فضالة قد سنحت، الفرص تمر مرَّ السحاب، ماذا تنتظر خنجرك تحت أثوابك، ومحمّد بين يديك أعزلاً من السلاح، إنّها فرصتك يا فضالة لتثأر لقريش، انتقم لها من هذا الرجل الذي سفه دين الآباء والأجداد واجتث الأصنام وقتل الأشاوس والشجعان، هيا اغرس خنجرك في قلبه. توقف قليلاً ليستردّ أنفاسه ويختبر رباطة جأشه، أأقتل محمّدًا، إنَّه خطب جلل، ولكنَّ الفرصة أغرته، وما رأى نفسه إلا وهو يدنو من محمّد خطوة خطوة، حتى كان قاب قوسين منه أو أدنى، تفاجأ بمحمّد يلتفت إليه قائلاً أفضالة؟ ارتبك واضطرب وقال: نعم فَضالة يا رسول الله.

- ماذا كنت تحدث به نفسك؟

- لا شيء، لاشي، كنت أذكر الله!

ضحك محمّد وقال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدر فضالة. شعر فضالة بالسكينة تسري في قلبه. خجل فضالة لأنَّه كذب على محمّد، وتيقن أنَّ محمّدًا عرف نيته وسبر غوره وعرف كذبه، وإلا لِم سألني؟ وضحك من جوابي، ووضع يده على صدري، أيريد أن يتحسس موضع خنجري؟ كيف خبر نيتي وعلم بما جال في خاطري وضميري؟ لا شكَّ أن الرجل ممنوع وأنَّه رسول الله حقًا. لّم سميته رسول الله؟ ألأحمي نفسي أم أنّي دخلت في الإسلام دون أن أشعر؟

شعر فضالة بشعور غريب، شعر ببرد السكينة والطمأنينة والأمن، تحسس مشاعره من جديد، رباه لقد ذهب القلق عني، لقد تغيرت، والله لقد تغيرت، والله إني لأحب محمّدًا الآن وما كنت أحبه من قبل، إنّه الآن أحبَّ إليَّ من النّاس أجمعين، لقد فارقتني تلك الخواطر الشيطانية، لقد ولدت من جديد، نعم لقد ولدت من جديد، لم يتمالك نفسه أن هتف بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمّدًا رسول الله.

لملم فضالة أثوابه وأسرع ليخرج من الحرم، تفاجأ بصوت امرأة تناديه: فَضالة فضالة.

التفت إليها عرفها قالت: هلمَّ إلى الحديث يا فضالة، تصبب جبينه عرقًا، وتوجه لنفسه بالخطاب: إنَّها فتنتك يا فضالة، أطرق برأسه إلى الأرض وقال:

قَالَتْ هَلُمّ إلَى الْحَدِيثِ فَقُلْتُ لَا

يَأْبَى عَلَيْك اللّهُ وَالْإِسْلَامُ

لَوْ قَدْ رَأَيْتِ مُحَمّدًا وَقَبِيلَهُ

بِالْفَتْحِ يَوْمَ تُكَسّرُ الْأَصْنَامُ

لَرَأَيْتِ دِينَ اللّهِ أَضْحَى بَيّنًا

وَالشّرْكُ يَغْشَى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ

ثمَّ قال: لقد ولدت يا هذه من جديد، وها أنا ذا اليوم خَلْقٌ جديد بخُلُق جديد ودين جديد فتعالي إلى الإسلام لتولدين من جديد، وتكونين خلقًا آخر؟

خديجة

بارقتنا في مدارج الكمال

بقلم: أ. كريمة عبد الكريم

إنّ حياة خديجة ووفاءها وصبرها وعطاءها في سبيل رسالة السماء، بل في سبيل استقامة فطرتها وطمأنينة نفسها، لهو مثل بليغ للإنسان -رجلا أو امرأة- الذي وعى دوره وقيمته في هذه الحياة، لمن عزم أن يعيش من أجل المبادئ وأن يموت من أجلها.

المتأمل لواقع المرأة المسلمة اليوم يحكم أنّهُ واقع مزري في معظم الأحيان، فالمرأة ترزح في مجتمعاتنا الإسلامية تحت وطأة مفاهيم تعشعشت في اللاوعي المجتمعي ففرضت تبعاتها عليها من حيث تريد أو لا تريد، وبغض النظر عن الظروف المعيشية والمادية للمرأة في مجتمعنا، فإنّها وقعت ضحية لمجموعة من العادات والتقاليد حكم عليها فيها أنّها ناقصة عقل ودين، وأنّ الرأي الصائب في مشاورتها ومخالفتها، وأنّها لا تملك الولاية على نفسها ناهيك على غيرها، إلى غير ذلك من مفاهيم وتصوّرات أسقطتها في واقع متخبط وأزمة تفكير مزمنة، أزمة أصبحت في حكم المفروض عليها، فسلّمت هي بها، وتجلّى ذلك في سلوكها وممارساتها، بدءاً من اختيارها لزوجها، وفي تربيتها لأولادها، إلى إدارتها لشئونها ومالها، مرورا باستقلالها وحريتها واحترام إرادتها في اتخاذ ما تراه هي مناسبا تجاه قضايا دينها ومجتمعها وأمتها.

إن كان الإسلام هو المتّهم الأول لهذا الواقع، فلنتفحّص رأي الإسلام في المرأة بالنظر إلى سيرة سيّدة الإسلام الأولى، خديجة بنت خويلد، أوّل امرأة في الإسلام، وزوجة نبي الإسلام، وهي التي عاشت الحقبتين، ما قبل الإسلام وما بعده، فهل حجر عليها الدين وقمعها، هل استغنى النبي عن رأيها ومشورتها، هل سلبها قرارها واستقلالها، فما عاد لها ولاية على نفسها ولا مالها وولدها، وهل حبسها في دارها، وصار هو السيد من دونها. سندرس شخصية خديجة ونشخّص مواقفها لأنّها لا تنتمي إن صحّ التعبير لمذاهب اليوم، فلا هي عائشة ولا فاطمة اللتان رُفعتا ألوية للمذاهب، فخديجة فوق التمذهب، وإن كان المزاج عند البعض يميل إلى أحد ويرتضيه فقط إن كان محسوبا على مذهبه، فخديجة كالنبي(ص)لا يختلف عليهما أحد، فلنرتضيها حكما ومثالا يحتذى للمرأة وللرجل على حدّ سواء.

> **كان لخديجة موقف تجاه عبادة قومها قبل أن تعرف محمداً، إذ دانت بالحنيفية، فزايلت عبادة القوم وطقوسهم، واستنكرت طبائعهم واستكبارهم، وما ذلك إلا لاستقلالها وثقتها بفكرها وقرارها.**

خديجة سيدة مرموقة من سيدات مكة، تميّزت خلال تاريخها السابق للإسلام بالسمعة الطيبة والجمال والإدارة الحسنة والثراء، إلا أنّ التاريخ عني بها حين اقترنت بالرسول الخاتم محمد(ص) وما أحسب أنّه سيخلّد ذكرها لجاهها ومالها، بل بما تحمّلت من صنوف الأذى والصبر والتضحية إلى جانب نبي بُعث لصالح الناس، ولتعليمهم وتزكيتهم ولتعريفهم الخير والشر، وبما بذلت من مالها وجاهها وسمعتها لنصرة دين جديد تضافرت أعتى الجهود على محاربته والصدّ عنه.

كانت البداية يوم اقترح عمّه عبدالمطلب عليها أن يعمل محمّد عندها لأمانته وعفافه ولقدرته على تحمّل الأسفار البعيدة، قبلت السيدة خديجة لكنّها مع ذلك ولدرايتها وحسن تدبيرها، أرادت أن تختبره بنفسها فبدأت معه برحلات قصيرة وبضاعة قليلة، قبل أن ترسله لرحلات بعيدة إلى الشام واليمن، على أن تبعث معه خادمها ميسرة يراقب الوضع ويتقصّى أحواله ويراقب أفعاله، وبعد كلّ رحلة يرجع ميسرة بأخبار عن محمد(ص) تنبهر بها خديجة، فأعجبها حسن خلقه وطيب نفسه وأمانته وشرفه، فإن كان العقل تجربة فخديجة كامرأة تسجّل موقفا عقلانيا راقيا، تخطّط لعملها وتحسن إدارته وتتابع تنفيذه بدقة ثمّ تصدر أحكامها، وحين تخلص التجربة يكون حكمها موافقا عين الصواب.

ومع سعة ثرائها حتى قيل أنّ تجارتها كانت تعادل تجارة قريش كلّها، إلا أنّ المال لم يكن هو صانعها ولم يكن يوما يملكها، لكنّها اكتسبت بالمال الخبرة والدراية والوعي، ولعلّه أحد أسباب تآلفها مع محمد الذي كان مثلها لم يغتر يوما بمال ولم يطمع به، حتى إنّها ضجّت من أمانته حين وجدته يتعفّف -بعد زواجهما- أن يأخذ من مالها إلا ما عمل به وعرق له!! وحين أشارت عليه أن يستقلّ برأس مال يعمل به، وافق وعمل بجد بما استقلّ به من مال، فاستغنى وكثر ماله، وأحبّ أن يتشارك معه شخص في التجارة، وبعد أن حقّق معه نجاحا، فاجأها بتخليه عن تجارته لشريكه، فلم ترى هي في ما فعل إلا رشدا وصوابا، إذ لم تكن التجارة ولا المال يوماً غايتهما، إنهما يملكان ما يشاءان، لكنّهما يملكان أيضا التخلّي عن كلّ أملاكهما حين يحكمان بعقلهما أنّها ساعة التخلّي والفداء لصالح جوهر وجودهما ومكنون إنسانيتهما.

كلّما تعرّفت خديجة على محمد(ص) أكثر ازداد إعجابها به، وكلّما تقصّت عن أخباره سمعت عنه ما يعزّز هذا الإعجاب، ذات يوم تحدّثت

مع صديقتها نفيسة بنت المنبه عنه وعن خلقه وسلوكه فبدا في حديثها شعور غريب تجاهه جعل صديقتها تقاطعها بقولها: يا خديجة أتحبّين أن أكلمه؟ قالت السيدة خديجة: فيمَ؟ قالت الصديقة: في الزواج منك!، قالت السيدة خديجة: نعم، أحبّت خديجة محمدا(ص) لدرجة أنّها حينما طرح عليها الأمر أجابت بنعم وبلا تردّد، خديجة السيدة المجربة الخبيرة ترى الزواج رباطا مقدّسا ينبغي أن يؤسّس على المحبة والوفاء لا على المطامع والرغبات، ولهذا السبب رفضت كلّ من تقدّم لخطبتها من أهل مكّة وغيرهم، رغم كثرتهم وعلو منزلتهم، أمّا محمّد فإنّه مختلف، إنّه الرجل الكفوء لها والمناسب لخلقها ولعقلها، استأذنتها صديقتها أن تكلّم محمّداً بهذا الشأن، فوافقت شرط أن لا تظهر له علم السيدة خديجة بالأمر ولا تبيّن أنّها مبعوثتها، فلّما تحدّثت نفيسة مع محمد(ص)، قال: ومن يرضى بي وأنا ما أنا؟ قالت له: خديجة ترضى بك، قال: أوترضى بي خديجة؟ قالت: أكلّمها وأرى، ثمّ عادت له بعد فترة وقالت: إنّها تقول وهل من مثل محمّد من أحد. لنا وقفة هنا، تعلّمنا خديجة أنّه يمكن أن تختار المرأة العاقلة بنفسها زوجها حين يجذبها خلقه وطهارة نفسه، مثل هذا فعلت ابنة شعيب(ع) كما أخبرنا القرآن، فقد تجد نفسها أمام رجل يلائم فكرها وطبعها وطموحها، فتودّه لإنسانيته ورقيّه، وربمّا تتمنّاه، لكن كيف لها أن تصل إليه، ها هنا مفترق الطريق، خديجة تريّثت وأرادت أن تعرف رأي محمد(ص) فيها، لا بدّ أن تتأكّد من رأي الرجل وقبوله فلا تلاحقه لتفرض نفسها عليه، فإن حصل الاتفاق يؤسّس الزواج بناء على رغبة الطرفين وإقبالهما. من يقول أنه لا يحقّ للمرأة أن تسعى لاختيار زوجها بنفسها، إن كانت تفكّر كما تفكّر خديجة؟ إنّه رجحان العقل لا العاطفة المندفعة، محمد النبي(ص) أمضى فعل خديجة

> **" أقرئ خديجة من الله السلام .. وقل لها إن الله يبشّرك بقصر من قصب في الجنة لا صخب فيه ولا نصب.. فتردّ بقولها هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام وعليك السلام ورحمة الله ".**
>
> **فكان ذلك آخر ما سمعته وهي تحتضر، وهي تغمض العين، وهي ترحل، فسلام من رب رحيم على روحٍ عملت للسلام فاستحقّت السلام في دار السلام.**

كانت خديجة المرأة والزوجة ممّن أدرك فلسفة الحياة والوجود، وتعالى على المادّيات رغم أنّها ملكت كلّ مقوّماتها، فلم تحرص على متع تعلم زوالها، أدركت أنّ زوجها إنّما يذهب لأمر خطير -وإن فارقها أياما طوال- فدفعته نحو عوالم الملكوت وفضاءات المطلق، لم يسمع منها يوما انتقادا أو محاسبة أو حديثا عن تأخّر.

وارتضاه، فيا أيتها النساء كنّ بنزاهة خديجة وبرجاحة عقل خديجة وبقيم خديجة واقتدين بها في اختيار من شئتنّ من الرجال، ولا أظنّ إلا أنّ اختياركن سيكون صائبا.

في بيت الزوجية أنجبت أبناءها من محمد، أربع بنات هنّ: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وولدين هما القاسم وعبدالله، كما تربّى في بيتها علي بن أبي طالب، وزيد بن الحارثة، والحارث بن أبي هالة، كلّ هؤلاء نهلوا من خلق محمد وخديجة، وشرف محمد وخديجة، ورعاية محمد وخديجة، فورثوا الصدق والوفاء والإباء والشجاعة. الحارث ابنها من هند بن النباش كان في حجرها حين تزوجت النبي(ص)، فربّاه النبي (ص) وكان اسمه حينها هند على اسم أبيه فسمّاه النبي بالحارث، تشرّب الوفاء من أمّه ومربيه، فأسلم وكان يظهر إسلامه، وينادي به فجلس يوماً في جماعة من قريش، فذكروا النبي (ص) بما كرهه، فغضب ووقع بينه وبين رجل من سفهائهم شرّ، ثم ذهب يصلي عند الركن اليماني، فوثب عليه فلم يزل يطأ في بطنه حتى مات، قدّمته خديجة قربانا لهذه الرسالة، لتضيف إلى شرفها شرف أم الشهيد الصابرة المحتسبة.

أمّا زيد بن حارثة فحينما رآه محمد(ص) في سوق عكاظ قال لخديجة: رأيت في السوق غلاما من صفته كيت وكيت يصف عقلا وأدبا وجمالا، لو أنّ لي مالا لاشتريته، فأمرت ورقة بن نوفل فاشتراه من مالها، فقال لها النبي(ص): يا خديجة هبي لي هذا الغلام بطيبة من نفسك، قالت: يا محمّد، إنّي أرى غلاما وضّيا وأحبّ أن أتبنّاه وأخاف أن تبيعه أو تهبه، قال: ما أردت إلا لأتبنّاه"، هكذا كانت تفكّر كما يفكّر النبي(ص)، وكانت ترى ما يراه، فأي عقل لهذه المرأة الجليلة ذاك الذي كان يوازي عقل النبي(ص)، وأي ظلم هذا الذي لحق بالمرأة

وسلبها ثقتها بقدرتها حين وصمت بأنّها ناقصة عقل لا يُقبَل منها رأي ولا تقدر على الولاية على نفسها ومالها.

لم يكن حسن الخلق وحده ما كان يميّز محمّد عند خديجة وما لفت انتباهها، كان محمّد وحدانيا قبل أن يُبعث رسولا، حنيفيا على دين نبي الله إبراهيم، وهي كانت كذلك، فلقد كان لخديجة موقف تجاه عبادة قومها قبل أن تعرف محمداً، إذ دانت بالحنيفية، فزايلت عبادة القوم وطقوسهم، واستنكرت طبائعهم واستكبارهم، وما ذلك إلا لاستقلالها وثقتها بفكرها وقرارها، وكان من الأمور التي نقلها لها خادمها ميسرة أنّه قال لها: بأنّ محمد مثلك لا يسجد لصنم!! فلمّا تزوّجت محمّداً وجدت نفسها تسارع في الاندماج معه والانسجام مع روحه، فتفهّمت اعتزاله القوم في غار حراء يجول بنظره في الآفاق سابراً أغوار نفسه وأغوار الكون من حوله، يزداد إشراقا وصفاءً يوما بعد يوم، فيجدها تقف إلى جانبه تصعد الجبل أيام خلوته تحمل له الأكل بنفسها رغم أنها سيدة قومها الغنية المخدومة، تبقى معه في الغار في بعض الأحيان يوما أو يومين وأحيانا ثلاثة! تنصت إليه وهو يحدّثها عن تأملاته وتحنّثه، ويسمعها ما يجول في نفسه من شجونه ومكنوناته، فيتداول معها تقلبات أحواله واثقا بعقلها وحكمتها وتقديرها، يحدّثها عن الرؤى التي يراها في منامه، فيشهد استبشارها بما يقول، وتشجيعها له للمضي نحو بلوغ غاية الكمال. كانت خديجة ممّن أدرك فلسفة الحياة والوجود، وتطلّع إلى معالي الأمور، فأيقنت أنّ زوجها إنّما يذهب لأمر خطير -وإن فارقها أياما طوال- فدفعته نحو عوالم الملكوت وفضاءات المطلق، لم يسمع منها يوما انتقادا أو محاسبة أو حديثا عن تأخّر، فهل في النساء اليوم من تساند زوجها وتدبّر أمرها في غيابه راضية مادام خروجه طلبا للخير وسعيا للمكرمات!

حين أتاه الوحي لأول مرة، ولّى إليها خائفا مرتعدا، وهو ينادي مرة دثّروني ومرة زمّلوني، وهي تلوذ به تحتضنه وتواسيه وتخفّف عنه هول الحدث، فلمّا هدّأت أحواله واستمعت لتفاصيل ما جرى عليه، قالت له: كلا أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبداً إنّك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق! أي دراية لهذه المرأة تمكّنت بها من سبر غور أعظم رجال التاريخ، كيف قدرت على تجميع أمرها أمام موقف عصيب كهذا لتقول ما قالت! فأفعاله التي سردتها هي بالفعل عند العقلاء مضادات للخزي، إذ لا يمكن أن يكون ما حلّ عليه هو شيء من الخزي أو الشبهة أو التهيؤ أو التخيل، والقرآن تمنّى لو كان الناس يفكّرون هكذا، فلا جنّة ما به ولا مسّ ولا جنون، أمّا خديجة فأطلقت تلك الكلمات وحدها فكانت كلماتها كفيلة بتثبيته وتطمينه والتخفيف عنه، في هذه اللحظة الصعبة تماسكت خديجة وحافظت على ثباتها ورسوخها حين كان هو مهتزّا خائفا، فكيف يقال أن المرأة ناقصة عقل وهي بهذه المستوى من رجاحة العقل وصلابة النفس وقمّة الوعي، لقد ثبّتت بمقولتها النبي(ص) وأسكنت اضطرابه، ثمّ كان الأمر كما قالت، فما جرى عليه فيما بعد ذلك صدّق قولها، فلم يخزه الله يوما وما قلاه أبداً، حكمها كان صحيحاً، وقولها صائباً، خديجة المرأة أصابت حين أخفق علية القوم وكبار الرجالات في إصدار حكم أو اتخاذ موقف نجاة من هذه الدعوة الجديدة، فيا ليت الرجال كلّهم بعقل خديجة ووعي خديجة وشجاعة خديجة.

وبدأت خديجة مسيرتها في مساندة الدعوة الجديدة، فبعد أن هدّأت من روعه، رافقت النبي(ص) إلى دار ورقة بن نوفل ابن عمّها، واستمعت إلى المزيد من أمر الوحي وخبر السماء، فأعلنت إيمانها بالرسالة عن قناعة ذاتية، وسجّلت اسمها أوّل إنسان صدّق برسالة الإسلام، لم يكن اتّباعا أعمى، ولا تسليما أجوفا لمن أحبّت ورافقت، وإنّما يقين عميق بصحة الدعوة وصدق صاحبها، ولا أدلّ على ذلك من تحمّلها لصنوف الأذى ولبذلها مالها وتخليها عن ثرائها في سبيل إنجاح هذه المهمة العظيمة.

وحين فكّرت قريش بمحاصرة بني هاشم، لم تكن السيدة خديجة معنية بالحصار إذ لم تفرضه قريش عليها، وطلبوا منها أن تلزم بيتها، فالمقاطعة التجارية والاجتماعية أوجبت فقط على النبي وبني هاشم، إلا أنّها بوعيها وسعة أفقها فهمت غرضهم ففوّتته عليهم، فلقد كانوا يريدون إحداث ثغرة في بيت النبي بالتفريق بينه وبين زوجه، فيتزلزل المؤمنون، أدركت بحدسها وذكائها هذا، فكان قرارها الشخصي، اتخذته بنفسها دون أن يطلبه منها النبي(ص)، أن تترك بيتها وتدخل الشعب، بقيت مع المحاصرين، ولم تخرج منه إلا حين فكّ الحصار بعد ثلاث سنوات، وها هنا موقف نبيل آخر، تتخلى فيه سيدة قريش عن جاهها ومالها وتأبى إلا أن تتعرّض للجوع والألم والفاقة، وتصرّ أن تشاطر إخوانها وأخواتها المؤمنين ما يتعرضون له، وأن تمارس دورها في التخفيف عنهم ومواساتهم، فإنّ تحمّلها ألوان الأذى والحرمان في حدّ ذاته لهو سلوى وسند ومثال جميل وهي السيدة الغنية ذات الحسب والحشم، ثم هي هناك أيضا لتقف إلى جانب زوجها النبي(ص) في محنته تتحمّل معه همّوم الدعوة في كل مراحلها، وخلال السنوات الثلاث التي قضتها في الشعب تذود من بيت إلى بيت، تثبّت النفوس، وتمسح الآلام عن الكبار والصغار، وتقدّم للمحاصرين ما يصلها من مؤنة مهرّبة من قريبها الذي كان يخاطر بحياته رحمة بها، فتقدّم لقمتها إلى غيرها، حتى أنهكها الحصار فخارت قواها وتأثّرت صحتها، فدفعت ثمن هذه التضحية الكبرى حياتها فماتت بمجرّد خروجها من حصار الشعب، لتُلقي حبيبها

محمّداً كسيراً في عام الحزن، وما أدراك ما عام الحزن؟ لكنّه حزنٌ مهما كبر مقداره فلن يكن بمقدار الحزن الذي يلمّ بقلب النبي (ص) وهو يرقب ما آلت له بنات خديجة من بعده، بقيود صيغت ظلما باسم دين النور والانعتاق الذي جاهدت له وماتت عليه خديجة! أفمن العدل أن تسلب الزوجات قراراتهنّ في زمننا هذا باسم الدين، فتجبرنّ على الانصراف عن تبنّي قضايا العدل والحقّ ونصرة المظلوم، وعن التمسّك بالدعوات الأصيلة التي حكمن بفطرتهنّ السليمة على سلامتها وصحتها.

إنّ في شخصية خديجة دروسا وعبرا لكل امرأة تودّ أن تؤدي دورها كاملا في الحياة، حين تؤمن بدعوة سماوية كدعوة محمد(ص)، فتعزف عن الدنيا وتقدّم ثروتها كلّها وتتخلّى عن حياة النعيم والراحة، باحثة عن السعادة الحقيقية التي وجدتها في معرفة الله والقرب منه، وفي البذل والعطاء والتضحية، وفي الوفاء واحتضان الحق والاستقامة عليه، وفي تحمّل المسئوليّة والصمود أمام أعاصير الجمود والباطل، خديجة كانت بحق درسا مشرّفا ورمزا للصدق والإخلاص، ومثلا حيّا لمن يقدّس قيم الحق والصلاح.

وإنّ حياة خديجة ووفاءها وصبرها وعطاءها في سبيل رسالة السماء، بل في سبيل استقامة فطرتها وطمأنينة نفسها، لهو مثل بليغ للإنسان –رجلا أو امرأة– الذي وعى دوره وقيمته في هذه الحياة، لمن عزم أن يعيش من أجل المبادئ وأن يموت من أجلها، وهي قدوة للزوجة التي تدرك أن مسئوليتها تجاه زوجها صاحب الرسالة تتطلب منها التضحية والوفاء للمبادئ، لتكون بإيمانها وليّة لزوجها كما هو وليّها بإيمانه، هذه العلاقة تنهي أشكال الاستبداد والسيطرة المتهم بها الرجل –في مجتمعنا، فلكل منهما دوره وخياراته، لا يبغي أحدهما على الآخر.

ولا بد من الإقرار أنّنا تعلّمنا من خديجة، أنّ المسئولية تقع أولا على المرأة بأن ترتقي بفكرها وعقلها ووعيها وتثبت أنّها كما الرجل قادرة على اتخاذ القرارات وتبنّي المواقف الحكيمة بنفسها، فلقد جمعت خديجة عقلها قبل أن تعرف محمداً على نقطة واحدة، هي كيف تكون إنسانا، فامتلكت زمام نفسها، فلم تعد بعدها تخاف شيئا ولا تطمع في شيء ولا تتعلّق بهوى شيء، وبذلك نالت العقل كلّه فامتلأت ثقة وطمأنينة، فإن كان النبي محمد(ص) قد أعان زوجته خديجة على الوصول إلى الحقائق وإدراك غايات الأمور، فلقد أعانت هي زوجها بصمودها وبوفائها وصبرها معه في كل الخنادق التي وقف فيها، وحين حملت ذات الراية التي حملها، لذلك استحقّت هذه السيدة الجليلة مقاما رفيعا، فسمّاها النبي(ص) سيدة نساء العالمين، وحفظ لها مكانة خاصة في قلبه إلى آخر حياته، وطالما طافت عليه ذكرياته الجميلة معها، فترحّم عليها، وكان يفي لأهلها وصديقاتها، وهو يقول: "لقد رزقني الله حبّها"، وها هي في آخر ساعاتها، بعد أن فكّت قريش حصارها مباشرة، وقد أجهدت وأصابها المرض، يأخذها النبي(ص) في أحضانه وعيناه تدمع، ليبلّغها سلاما خاصا من جبرائيل وهو يقول: يا خديجة هذا جبرائيل يقول أقرئ خديجة من الله السلام ..

أقرئ خديجة من الله السلام .. وقل لها إن الله يبشّرك بقصر من قصب في الجنة لا صخب فيه ولا نصب.. فتردّ بقولها هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام وعليك السلام ورحمة الله.

فكان ذلك آخر ما سمعته وهي تحتضر، وهي تغمض العين، وهي ترحل، فسلام من رب رحيم على روحٍ عملت للسلام فاستحقّت السلام في دار السلام.

إنّ في شخصية خديجة دروسا وعبرا لكل امرأة تودّ أن تؤدي دورها كاملا في الحياة، حين تؤمن بدعوة سماوية كدعوة محمد(ص)، فتعزف عن الدنيا وتقدّم ثروتها كلّها وتتخلّى عن حياة النعيم والراحة، باحثة عن السعادة الحقيقية التي وجدتها في معرفة الله والقرب منه.

جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية
Aljadeed Cultural & Social Society
نحو منهاج إصلاحي جديد

ترقبوا العدد القادم !!

جديد

عندما نطق السراة

بين آدمين

آدم الإنسان..وآدم الرسول

توصّلتْ العلومُ الحديثة آثارياً وتحليلياً أنّ (الإنسان) العاقل بزغ قبل قُرابة ٥٠ ألف سنة، لكنّ التراث التقليدي المتأثّر بالتوراة يُكرِّر أنّ خلق (الإنسان) استهلّ منذ ستّة آلاف عام!

فلماذا هذا التباينُ؟ وهل هما (آدمان) أم (آدم) واحد؟ من هو (آدم الإنسان) الأوّل الذي عصى؟ ومن (آدم الرسول) الذي لا يعصِي؟ كم الزمن الذي يفصل بينهما؟ وما الفرق بين آدم العلميّ - وفق آخر التحقيقات الجينيّة- وآدم الإنجيليّ؟ ما الفرق بين (شجرة البشر) و(شجرة الإنسان) و(شجرة الرسل)؟ كيف (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً) ولأجل ماذا؟ لماذا لم تنفجر حضارةُ الإنسان؛ من دين، لُغة، كتابة، علوم مدنيّة، فلك، سكنٌ ومعابد وأهرام، تنظيم أسرة، رعي حيوان، زراعة، توطّن، شرائع اجتماعيّة، إلاّ في العشرة آلاف سنة الأخيرة؟! ماذا علّمَ الرسلُ السّريان العالَم (آدم، شيث، إدريس، نوح)؟ ولماذا كانت أعمارُهم مديدة، حتّى أنّ نوحاً لبث في قومه (أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا) بحسب الأساطير والتراث و(الكنزا ربّا) والتوراة والقرآن والمأثور؟ فكيف لبثها؟! وكيف طُرِحتْ (الأعوام) من (السنين) في الآية؟! ما معنى (نوح) و(إبراهيم) و(دوموزي) و(رويال)؟ وما ارتباطهم بحراسة ذرّية (الفطرة)؟ كيف تكوّنت (الأسرة) الإنسانيّة؟ وكيف انتشرت أسماءُ مكوّناتها في كلّ اللغات الغربيّة بالمعنى نفسه؟ لماذا تشدّدت شرائعُ السماء مع (الفجور) وانتهاك (الأسرة)؟ وما هي شريعة (عشتار) وارتباطها بسقوط آدم الأوّل حين قارَبَ (شجرة) المعصية؟ لماذا زوّر عُتاةُ اليهود تاريخ الأنبياء والمعلّمين ونسبوا لهم (الفجور)؟ ما هي خرافة شمشون (البطل الفاجر)؟ وما حكاية (قابيل وهابيل) الحقيقيّة ولماذا قتَله؟! هل يُعطى "الأدميُّ" إذا مات فرصةَ حياةٍ ثانية لتصحيح خطئه؟ ما هي رسالةُ "آدمنا" في هذه الحياة ليعود "آدميّاً"؟!

للحصول على نسختك الرجاء زيارة موقع الجمعية

www.tajdeed.org

عندما نطق السراة

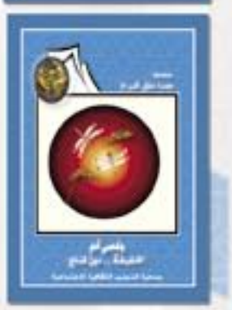

جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

Al Tajdeed Cultural & Social Society

نحو منهاج إصلاحي جديد

الأمة الواحدة ... جوهر رسالة الإسلام

وفاءاً لوديعة محمد ﷺ

تنظم جمعية التجديد الثقافية

بمشاركة نخبة من العلماء والمفكرين

مؤتمر

"الوحدة الإسلامية وديعة محمد ﷺ "

في الفترة مابين 28 -30 ديسمبر 2007م

الموافق 18-20 ذو الحجة 1428 هـ

فندق الراديسون ساس (الدبلومات)

المنامة - مملكة البحرين

مؤتمر "الوحدة الإسلامية .. وديعة محمد ﷺ "

جمعية التجديد الثقافية الإجتماعية
Altajdeed Cultural & Social Society
نحو مشاريع إصلاحية جديدة

www.tajdeed.org
tajdeed @tajdeed.org

ص.ب : 10493
المنامة - مملكة البحرين

هاتف : (+973) 17 27 37 87
فاكس : (+973) 17 27 47 87